ليلة أنجيلا

قصص قصيرة

إبراهيم عبد المجيد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

إشراف: د. سهير المصادفة

ليلة أنچيلا
قصص قصيرة
إبراهيم عبدالمجيد
تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

ليلة أنجيلا

قصص قصيرة

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة تتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان



ليلة أنجيلا

- ١ -

بدت لى فى صمتها ونظراتها المدهوشة، كأنها أيقونة حية. كنت أتعشى عند صديقة مصرية متزوجة من اسكوتلندى، ويعملان فى باريس. لاحظت أنها، بعد أن مضى نصف الوقت تقريبًا، راحت تضحك بصوت مشوب بغمغمة دون أن تفتح فمها. أدركت أنها لا تريد أن تضحك، إنما تجامل المتحدث، الذى كان غالبًا زوج صديقتى الذى يترجم كلامى أو يحدثها فى أمور لا أعرفها بالفرنسية.

كان المطر لا ينقطع طوال السهرة فوق باريس. ما كدنا نغادر المنزل، وكان الوقت منتصف الليل، حتى تشبثت بذراعها. قلت:

- سأذهب لأوصلك أنجيلا.

باغتها، وفى اللحظات التى راحت تفكر فيها فيما أقول، كنت قد ابتعدت بها إلى الرصيف الآخر، وفتحت مظلتى وفتحت مظلتها.

بالكلمات الفرنسية القليلة التى أعرفها وبالكلمات الإنجليزية القليلة التى تعرفها، فهمت أنى أريد أن أشرب معها شايًا فى بيتها!

كنا نقف فى شارع سان مور بمحطة جونكور، وكانت هى تسكن، كما قالت، عند محطة الجمهورية ، أى المحطة التالية إذا ركبنا المترو، ولولا المطر لكنا مشيناها، لكن اقتراب تاكسى منا شجعنى أن أشير إليه، وأخذناه..

راحت تصف الطريق للسائق بطريقة أدركت منها أنها ضلت الطريق، وكانت كلما ضلت الطريق ضحكت بذلك الصوت المشوب بالغمغمة ثم عادت تصف الطريق من جديد. فهمت أن السائق، أكثر من مرة يطلب منها أن تخبره باسم الشارع ورقم البيت وتتركه يصل بنا، لكنها بعناد إيطالى عجيب كانت تصر أن تصف له الطريق.. فى النهاية توقف التاكسى

- لكنه ليس بيتى؟

- أى بيت من هذه البيوت لابد أن يكون بيتك سيدتى.

قال السائق يائسًا، ونزلنا نفتح مظلتينا تحت المطر الذى تلقفنا، وأعطت السائق حسابه وهى تمط شفتيها ووجهها باستنكار، لكن تاكسى آخر توقف أمامنا نزل منه اثنان ثملان أحدهما لا يزال فيه شىء من القوة فراح يسند الآخر، وقال وهو يعبرنا إلى الباب «بون

سوار أنجيلا» فهتفت «ها.. هذا هو البيت».. كنا نقف أمام بيتها ولا تدرى؟

- كل ليلة يأتيان ثملين هكذا..

قالت وهى تغمغم ضاحكة..

وجدت أنها تعيش فى شقة من غرفتين. فى الغرفة الثانية، رأيت فتاة قالت لى أنجيلا عنها إنها أمريكية. وطوال الساعات الثلاث التى أمضيتها مع أنجيلا كنت أجلس على حرف السرير المنخفض الذى يحتل مساحة كبيرة من الحجرة. لم يكن هناك غير مقعد واحد وضعت أنجيلا عليه ثيابًا كثيرة لم أستطع نقلها إلى مكان آخر. لم أشأ فى الحقيقة، إذ لم يكن ثمة مكان آخر، فالحجرة مهوشة مشوشة كل شىء فيها فى غير مكانه بحيث لا تميز شيئًا عن شىء وفى كل مساحة خالية من الأرض، تجد ثيابًا مهملة وكتبًا وديسكات و «سى دى» وشرائط تسجيل وأدوات تجميل، والغرفة كابية الضوء لكن يبدو أن أنجيلا تعرف مكان كل شىء فحين طلبت منها أن نستمع إلى بعض أغنيات «بافاروتى» مغنى الأوبرا الإيطالى ذى الصوت فائق النعومة والجمال، مدت يدها وسط الفوضى وسحبت «سى دى» ووضعتها فى جهاز كمبيوتر فى ركن الغرفة وانساب الصوت الحالم.

طوال الساعات الثلاث التى أمضيتها معها، صنعت لى الشاى ثلاث مرات، ولم توافق أبدًا على أن تعطينى نفسها! قاومت بشدة فى كل مرة ظننت أنها لانت، ووجدتها قوية جدًا. كنت عرفت من

صديقتى المصرية وزوجها الأسكتلندى، أنها، أنجيلا، راقصة باليه، لكن جسمها كان فيه استدارة ولدونة لا تجدها فى راقصات الباليه، وعرفت أنها لا تحترف الرقص، لكن تدرسه، وتعد عنه رسالة دكتوراه. هى تمارسه إذن كهواية فتعطى لجسمها حقه من الأنوثة!

لم يكن من اللائق أن أضغط عليها كثيرًا حين تقاوم، ثم أننا فى أوروبا، ويمكن أن يُعد ذلك تحرشًا لا أخلاقيًا ينتهى بكارثة قانونية. وكنت أسمع الفتاة الأمريكية فى الغرفة الأخرى تغمغم ضاحكة أيضًا على طريقة أنجيلا، رغم أن أحدًا لم يكن معها. لقد لاحظت عند دخولى أنها ترسم شيئًا ما على لوحة وسط ضوء خافت. الحقيقة كان الضوء كابيًا فى الشقة كلها، ثم انسحبتُ وهى تغمغم ضاحكة وتتكلم «أوريڤوار.. أو دى ما» كنت قد عزمت على الانصراف، لكنى لم أيأس. عزمتها عى العشاء فى اليوم التالى. قالت أنها ستمر على فى الفندق فى السابعة مساء، ونهضت تودعنى عند الباب. ونزلت أمنى نفسى بجمالها، لقد تركتنى أقبلها، ولا شىء أكثر من ذلك. قلت فى نفسى لا بأس بهذه المحاولة اليوم، فهذه الإيطالية الحمقاء لاشك قد شابها شىء من الشرق يجعلها ليست فى سهولة غيرها من بنات أوروبا.

حين غادرت بيتها كان المطر قد انقطع فوق باريس. طاف بى التاكسى كثيرًا حتى يصل بى إلى الحى الخامس. دخل وخرج من أكثر من نفق لم تسبق لى رؤيته! لم أهتم لقد وصلت فى النهاية إلى الفندق، لكن الشاى الذى شربته عند أنچيلا، ولابد أن التوتر أيضًا،

ساهما فى إيقاظى بقية الليل، وحتى نزلت إلى مطعم الفندق فى التاسعة صباحًا.. كان اليوم الجديد إجازة فى فرنسا بسبب أحد الأعياد الدينية. قلت لنفسى إن النوم سيداهمنى مهما قاومت، وإنى فى حاجة إلى راحة كبيرة قبل أن أقابل أنجيلا على العشاء، إذن فالأفضل أن لا أبتعد عن الفندق، إما أن أدخل إلى «الجاردان دى بلانت» التى تواجه الفندق، أو أتسكع قليلاً فى شارع موفتار خلف الفندق الذى يحمل اسم الحديقة! فضلت الذهاب إلى شارع موفتار حتى أمر على البيت القديم الذى سكن فيه رينيه ديكارت بعض الوقت فى القرن السابع عشر خلال إقامته الباريسية، أزيد أن أقرأ ما كتبه فى رسالته إلى الأميرة إليزابيث أميرة إقليم بوهيميا «من بلد إلى بلد أرحل، ومن بلد آخر إلى بلد آخر يستمر ترحالى، وهذه هى الحياة الحقيقة»

لقد رأيت هذا البيت منذ يومين، واندهشت من رغبتى فى العودة إلى رؤياه، لكن غلبنى النعاس بشدة فصعدت إلى غرفتى ونمت على الفور. لم أذهب إلى الجاردان دى بلانت التى تواجه الفندق، ولا إلى شارع موفتار خلف الفندق الذى يحمل اسم الحديقة!!

- ٢ -

نمت ست ساعات كاملة. تناولت تفاحة مما احتفظ به فى الغرفة، وموزة وأكلتهما. لا داعى للخروج للغداء. بعد ساعتين ستأتى أنجيلا ونذهب للعشاء.

وقـفت عند النافـذة أمـارس هوايتى فى مـشـاهدة الناس على الطبـيـعـة فـتـحت الزجـاج وأزحت السـتـارة جـانبًا. لا أحب أن أرى الناس من خلف الزجاج. يبدون لى كأنهم فى فيلم سينمائى، بدون زجاج هم طبيعة حية. أمامى باب حديقة النباتات (الجاردان دى بلانت) مفتوحًا على مصراعيه. بعده يمضى طريق بين الأشجار الكثيفة ينحنى ثم يختفى. حين تتقشع الشمس الواهنة هذه ويزداد الجـو طراوة ينزل على الحـديقـة ظل من كل ناحـيـة، تزيد منه الأشجار الكثيفة فيها، فيخيل إلى أن الطريق خلف بابها ينتهى إلى قصر مسحور، شىء أشبه ببيت الأقزام السبعة، أو الأمير دراكولا! لا اندهش من أفكارى السوداوية التى كثيـرًا مـا تفـاجئنى. ابتعـد بعينى إلى الشارع تحت الفندق أتأمل حركة النساء والفتيات حتى مضت الساعتان.

عـدت إلى النافـذة أكـثـر من مـرة. رأيت أنجـيـلا أمـامى على الرصيف المقابل عبرت الشارع بقوة وسرعة. طويلة رغم أنى أراها من أعلى! ترتدى جوبًا قصيرة جدًا، وبلوز ضيق من الصوف الوثير، وحول عنقهـا إيشـارب. الجوب رصاصى والبلوز فضى والإيشـارب أزرق وشعرها البنى طويل طويل حول عنقها وخلف ظهرها. نزلت أقابلها. رأتنى أمامها فضحكت مغمغمة! صافحتها وتعمدت على الطريقة الباريزية أن أقبلها تأملتها ورأيت شامة على ذقنها. عجيب أننى لم أر هذه الشامة أمس. ربما رأيتها ونسيت. هيا نصعد إلى الغرفة

قلت فنظرت إلى بدهشة واستنكار وطال وجهها وبان الامتعاض عليه. قلت لنفسى بداية غير مشجعة، لكن لأكمل الليلة، ربما يكون للعشاء أثره الطيب!

- هل هناك مطعم محدد تحبه؟

سألتنى قلت.

- نذهب إلى السان ميشيل ونختار.

أسرعت، وأسرعت معها مندهشًا من سرعتها. لابد أن هذه طريقتها فى المشى. محطة المترو قريبة. أنا عادة أركب المترو إلى محطة الأوديون ثم أغيره إلى المتجه للسان ميشيل لا يتجاوز الوقت عشر دقائق. وركبنا المترو لكنها لم تنزل فى الأوديون.

- لا. لا أنا أعرف

قالت ذلك ونزلنا فى محطة تعذر على حفظ اسمها. صعدنا الى السطح. الشارع شبه خال بسبب الإجازة الدينية، ووقفت هى تنظر حولها ثم قالت «آه. من هنا» وأسرعت وأنا معها. لم يطل مشينا حتى وجدت نفسى أمام مقهى «الفلور» بالسان چيرمان مقهى الوجوديين الشهير الذى أحرص دائمًا أن آخذ فيه فنجانًا من القهوة فى كل مرة أزور فيها باريس.

كلما جلست فى هذا المقهى أحسست برغم ازدحامه أن المكان كله أوسع من أى مكان فى الدنيا وأن هواءه من ماء عذب وتنتابنى الرغبة فى ملذات الحياة.. ورأيتها تقف وتفكر، قلت:

ـ من هنا أنجيلا. نمشى قليلاً ثم ننعطف إلى السان ميشيل.

قالت «لا» إنها تعرف طريقًا آخر مختصرًا، وأسرعت تدخل زقاقًا خلف مقهى الفلور فأسرعت معها. الزقاق ضيق ونظيف مثل كل أزقة باريس، ملئ بالمجلات التى تعرض الأزياء والأحذية، وكلها مغلقة ومضيئة خلف واجهاتها الزجاجية. بدت لى محلات خاصة للأغنياء من أنواع البضائع وأسعارها، خاصة محلات المجوهرات.

راحت أنجيلا ترمح، وأنا أحاول أن أكون فى قوتها، وكانت تبدو جميلة وبريئة وتزداد براءتها كلما انتهى زقاق ووقفت متحيرة تفكر حتى تدخل زقاقًا آخر.. الأزقة كلها خالية والمحلات كلها مغلقة وأنا وجدتها فرصة أن أحوطها أحيانًا بذراعى وأداعبها فتجفل ضاحكة وتقول نو.. نو.. نو..» ثم تغمغم وتسرع وأنا كثيرًا ما أكون خلفها بسبب سرعتها. لاحظت أنى رأيت مطعمًا تركيًا فى زقاق متسخ على غير بقية الأزقة، وعددًا آخر من المطاعم تذكرت أنى تعشيت مرة فى هذا المطعم التركى مع صديقة لبنانية وسألتها عن المكان الذى فيه المطعم الذى قدم لنا كبابًا ممتازًا فقالت «السان دى نى» لقد ابتعدنا كثيرًا إذن عن السان ميشيل أنجيلا. قلت فقالت ضاحكة تغمغم «نو.. نو.. نو..» وظلت تجرى حتى خرجنا إلى شارع واسع خال تمامًا مفتوح للريح، قرأت اللافتة على رأسه فكان «بوليفار راسباى».. يا إلهى. إن الذين يعرفون باريس يعرفون أى مقدار من المشى مشيته.

ـ أنجيلا. أرجوكِ نركب المترو ونعود إلى السان ميشيل.

ـ نو... نو... نو... لقد اقتربنا.

وأسرعت وقد استسلمت متأكدًا من ضياع الليلة. تساميت بروحى ورحت أتفرج على ما يحدث لنا. بين لحظة وأخرى يظهر زنجى وحده أو مع فتاة بيضاء أو يظهر عجوزان أو شرطى يتسكع. هذا ما صرت أراه بين المحلات المغلقة المضيئة والريح التى تجرى فى الشوارع حتى دخلت بى بعد عدة أزقة إلى شارع آخر قرأت إسمه «رى دى رين» هنا بدأت أنسى كل شىء وأفكر فى أن لدى فى الغرفة شيبسًا وتفاحًا ومشروبًا تكفى أن أتعشى حين أعود. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. توقفت وقالت.

- لقد اقترينا من المطعم اليونانى الذى أحبه.

قلت إذن هى تبحث عن مطعم تحبه تريد أن تجعله مفاجأة لى. ودخلت إلى عدة أزقة أخرى وأنا أقاوم التعب حتى وقفت أمام باب مغلق عليه لافتة من الورق وراحت تقرأ وأنا أقرأ معها «يعتذر المطعم عن أنه مغلق لمدة شهر». رأيت الأسف على وجهها فسألتها:

- هل هذا هو المطعم الذى تريدين؟

- وى. باردون. جى نى سيه با!!

أردت أن أصرخ فيها إنك لا تعرفين أى شىء لا عن المطعم ولا غيره، لكنى أشفقت عليها وأحسست كم تحتاج إلى مساعدة هذه القطة الصغيرة فأخذتها بين ذراعى ثم ابتعدت ضاحكة تغمغم.

- يمكن لى أن آخذك إلى مطعم آخر.

قلت:

- أنا متعب أنچيلا وأريد أن أنام...

فى غرفتى أخذتنى سورة من الضحك حتى دمعت عيناى. ماذا تطارد هذه الفتاة فى باريس؟ تحاملت على نفسى وخلعت ثيابى. أخذت دشًا ساخنًا.

اكتشفت أن الحمام ضيق جدًا رغم أنى أستحم فيه كل يوم.. تمددت فوق السرير أعبث بالريموت كنترول باحثًا عن شىء مثير فى التليفزيون.. وجدت فيلما سبق لى أن شاهدته فى باريس منذ خمسة أعوام، وفى التليفزيون أيضًا، وفى مثل هذا الوقت من الليل. قرية إيطالية يحتلها النازيون. فى تلك المرة لم أعرف الممثلين ولا أسماءهم فلم تكن قد سبقت لى مشاهدتهم كما أنى عثرت على الفيلم بعد بدايته. هذه المرة أيضًا عثرت عليه بعد البداية، لكنى قلت لنفسى أننى أعرف الممثلين إذ شاهدتهم من قبل، وضحكت ورفست الغطاء بقدمى. ولما دق التليفون أدركت أنها أنجيلا.

- معذرة آسفة جدًا. أنا لا أعرف كيف فقدت الطريق إلى المطعم.

- ....

لابد أنه كانت هناك لافتة أخرى تعلن أن المطعم انتقل إلى مكان آخر ولكن أحدًا بيما فيما مزقها.

- ....

أنت تسكن فى فندق الجاردان دى بلانت أمام حديقة الجاردان دى بلانت وهذا مكان جميل.

- ......

- أحب أن أدعوك إلى جولة بالحديقة غدًا ثم إلى عشاء سأحضر فى الخامسة، ستكون معى صديقتى الأمريكية، ميليسا، ستحبها جدًا وتعرف مكان المطعم الجديد، ستحب المكان، إنه مكان رائع يجب ألا يفوتك، إن چورچ موستاكى المغنى اليونانى المولود فى الإسكندرية يسهر فيه.

كان ذلك آخر ما سمعت. كان النوم يسحبنى وأنا لم أكن أجد شيئًا أرد به عليها غير كلمة «أوكيه» فى الصباح تذكرت الحديث كله، وجدت التليفزيون لا يزال يبث برامجه فأغلقته. قررت ألا أنتظرها أخذت طريقى إلى متحف الأورسيه الذى أحبه ولا أمله فى الزيارة السابقة لباريس كان هناك إضراب لعماله وموظفيه فلم أشاهده وشعرت بالخسارة رغم أنى شاهدته من قبل فى الزيارات الأسبق. فى صالات المتحف الصغيرة الأنيقة لم يفارقنى وجه أنجيلا وهى تضحك ولا وهى تبدو غاضبة ولا وهى تبدو آسفة مرتبكة، كنت أبتسم أمام لوحات مونيه ومانيه ورينوار وديجا وغيرهم، وامتزجت رؤياى لأنجيلا بسعادتى باللوحات واندهشت من نفسى.

فى الرابعة وجدت نفسى فى الفندق أنتظر أنجيلا.. احتطت لما يمكن أن يحدث وأكلت بيتزا فى المطعم المجاور للفندق. فى

الخامسة تمامًا كانت تقف أمامى فى اللوبى الصغير للفندق بدت لى أكثر إشراقًا من أمس ورأيت الأمريكية جميلة أيضًا إن لم تكن فى طول أنجيلا التى وقفت أمامى مرتبكة.

ـ لا عليك أنجيلا، لا عليك يا صغيرتى

وأخذتها من ذراعها وخرجنا. عبرنا الشارع ودخلنا الحديقة مشينا على مهل بين الأشجار. قابلتنا طراوة الحديقة ونسماتها المنعشة فاسترخينا فى المشى. راحت تقرأ لى ما هو مكتوب على الأشجار على كل شجرة لوحة بسيرتها ومكانها الأصلى وتاريخ وصولها إلى باريس والأمريكية تضحك ولا تكف عن الغمغمة!

ـ أنجيلا. إننى أعرف القراءة بالفرنسية وهذه معلومات بسيطة ضحكت لكنها لم تكف عن القراءة لى.. هنا شجرة من أفريقيا انتقلت عام ١٨٥٤ وهنا من المكسيك منذ ثمانين سنة وهنا من جواتيمالا وهنا من الأمازون وهنا زهور من جبال الألب فى معرض خاص، وزهور من الهيمالايا، ودخلنا إلى متحف التاريخ الطبيعى لنرى أشكالاً من الحيوانات وتواريخها وطفنا حول حديقة صغيرة للمها والغزلان النادرة، وأنواع خاصة من حيوانات استراليا وحمر وحشية وحولنا ناس سعداء، عواجيز ورجال ونساء وشباب وصبية وأطفال. الذى يجرى، والذى يمشى والذى يقود الدراجة والذى انفرد بعيدًا يقرأ أو يصور وأنا فى كل ذلك لا أترك يدها من يدى وأحيانًا أتركها تشرح لى ما نراه واقترب بوجهى منها لكنها تحس بأنفاسى فتضحك مغمغمة وتضم رأسها إلى كتفها، وهطل مطر

خفيف ولاحظت أن الناس تقل أعدادها من حولنا، قلت ربما بسبب المطر الخفيف، والظلام الذى ينزل شيئًا فشيئًا، وفى كل ذلك بدا أننا نسينا ميليسا التى كانت تتوقف كثيرًا بين الزهور تشمها وتغمغم ضاحكة وأحيانًا تجلس بينها وتتحدث إليها بكلام غير مسموع ثم تنهض فرحانة تنظر إلينا وتضحك واخترنا مقعدًا تحت شجرة ضخمة جلسنا عليه وأخرجت ميليسا من حقيبتها كيسًا به فستق رحنا نأكله فى لذة ثم انكسرت عين أنجيلا اليسرى فجأة وطال وجهها الذى ظهرت فوقه علامات الاضطراب وسألتنى.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ التاسعة.

وقفت مذعورة وقالت «ڤيت.. ڤيت» وجرت بسرعة وأنا لا أفهم فجرينا خلفها ولاحظت أننا لا نقابل أحدًا، ولم تتوقف عن الجرى إلا أمام باب الحديقة الذى كان مغلقًا. راحت تنظر إلى بأسف لا مثيل له، وحزن أيضًا، أما أنا فقد تجمدت من الدهشة بينما قالت ميليسا وهى تبتسم

ـ الحديقة تغلق أبوابها فى الثامنة، دائمًا تنسين ذلك أنچيلا.. وقفنا يائسين، وبدأت أنتبه لأصوات الحيوانات التى تصل إلينا قلت هى حيوانات مستأنسة على أى حال، ولن تترك أماكنها، بينما قالت ميليسا إنها تعرف مكانًا يمكن الخروج منه، ثم أسرعت وأسرعنا خلفها حتى وصلنا إلى نهاية السور فأشارت إليه وقالت وهى فرحانة:

- تستطيع أن تحملنى فأتعلق بالسور وأقفز إلى الخارج وأنت تستطع أن تتسلق هذه الشجرة ثم تتعلق بالسور بعد أن تفعل ذلك مع أنجيلا..

كان السور منخفضًا بعض الشىء هنا بسبب ارتفاع الأرض، لكن كان ما تقوله صعبًا وبالنسبة لى كانت المسافة بين الشجرة والسور أكثر من مترين وافقت وفى نيتى أنه إذا نجحتا فى القفز خارج الحديقة أظل أنا داخلها. المهم أن أنقذهما من الرعب الذى يمكن أن ينتابهما إذا تقدم الليل قالت أنجيلا: «ابدأ بى أنا»..

حملتها إلى أعلى وتعلقت فعلاً بالسور ورحت أرفع يدى وهى تحاول بقوة وتدوس على السور بقدميها حيث سقط حذاؤها لكن بلا فائدة.. سقطت على الأرض وبان ألم شديد على وجهها لقد التوى كاحلها.

أوقفتها بمساعدة ميليسا التى تألمت جدًا، ثم غمغمت ضاحكة وأسندتها على، وتحت الشجرة الكبيرة التى كانت قد اقترحت ميليسا أن أتسلقها جلسنا، أنجيلا ترتاح على صدرى ويدى تمشى تمسح ظهرها بحنان، وميليسا أسندت رأسها بدورها على كتفى ونامت، وازداد هطول المطر فازداد اقترابهما منى، وصار صوت اصطدام المطر بالأشجار والأرض صاخبًا، لكن كان يبدو أن الشجرة تستطيع أن تحجبه عنا مهما يطل الوقت وكفت قطراته. لكن ما لم تحجزه الشجرة كان أصوات الحيوانات التى ازدادت وملأت الفضاء وميزت من بينها أصواتًا صادرة لأسود ونمور وقردة وأفيال وحتى وحيد القرن.

حكاية تيرى

كنت أجلس فى قاعة التدخين لم تكن قاعة فى الحقيقة، إنما هى بهو كبير محاط بالنوافذ الزجاجية العالية التى يبدو العالم خلفها واسعًا للغاية من شدة البياض السابغ الذى تنعم به الشمس على هذه البلدة الواقعة على المحيط الأطلنطى.

الوقت صيف، ولاروشيل مدينة ملونة. ألوانها من أجساد النساء، والقطع الصغيرة من الملابس التى قد تجدها عليهن، وأيضًا كرنفالات الزهور ومهرجانات الألعاب وفرق الموسيقى. كنت وطدت نفسى أن أبقى بعض الوقت بعد إجراء العملية الجراحية. هذه الألوان التى رأيتها عند وصولى احتاج أن أتشربها بعد شفائى. أن أغسل بها خوفى الذى سبق العملية، وأن تحملنى إلى الفرح الذى افتقدته منذ زمن طويل.

ثلاثة من المرضى كانوا يجلسون معى. أحدهم مغربى السحنة والملامح والآخر يبدو لى غجريًا والاثنان فى عمر الشباب. الثالث لم يكن يجلس، كان يمشى على عكازين، إنه فرنسى، نحيل أكثر من الفرنسيين، ليس بسبب المرض، لكن بسبب الشيخوخة. من يقترب من وجهه يدرك أنه تجاوز الستين، لكنه كان يتحرك بسرعة شديدة على العكازين، مثل شاب على ساقين حقيقيتين، وكان يبتسم لحظات، ثم يتجهم، يغضب مثل الأطفال، ثم يسرع بالعكازين يختفى فى الصالة الموصلة إلى غرف المرضى. يعود إلى غرفته، لكن لا يمضى وقت طويل حتى يعود إلينا. إلى البهو فى الحقيقة، فهو يبدو لا يشعر بوجودنا. اليوم نظر لى طويلاً. لماذا اختارنى أنا بالذات؟ لا أعرف. تقدم نحوى بسرعة وقال:

- هل يمكن أن تبيع لى علبة تبغ؟ كان يتكلم بسرعة بالنسبة لى، فهمت مراده رغم أن لغتى الفرنسية ليست جيدة. ابتسمت. قدمت إليه سيجارة. التقطها بعد أن احتضن العكاز تحت إبطه وأشعلتها له وهى فى فمه واختفى بسرعة فى الصالة، لكنه بسرعة أيضًا عاد متبرمًا جدًا تكلم بسرعة أيضًا ولأكثر من دقيقة راح المغربى يبتسم، بينما أتى الغجرى بحركة بذيئة من ذراعه ولأنه استمر يتكلم وينظر إلى ابتسمت.. هو يكلمنى وليس لدى شىء أقوله، فأنا لا أفهم الآن ماذا يقصد، وليس لدى أيضًا ما أفعله إلا الابتسام مادام المغربى قد ابتسم..

انتهى من السيجارة وتقدم بها إلى المنفضة الحديدية الكبيرة الرديئة الصنع، التى يبدو من شكلها ومكانها أنها وضعت ليكره الناس التدخين.

تقدم منها وفكر لحظة ثم ألقى بعقب السيجارة على الأرض الرخامية ودهسه بحذائه الخفيف وأسرع إلى الصالة ليعود إلى غرفته. وضح لى الآن أنه حين دخل الصالة أول مرة والسيجارة معه منعته إحدى الممرضات وطلبت منه العودة للتدخين فى المكان المخصص لذلك. ذلك سب توتره وسبب الحركة البذيئة من الغجرى

بعد أكثر من ثلاث ساعات عدت إلى البهو لأدخن سيجارتى الثانية. كان الضوء لا يزال قويًا، فالنهار صيفًا طويلاً هنا، يبدأ فى السادسة صباحًا، وينتهى فى التاسعة مساءً.. وهو فى المستشفى أطول منه فى الخارج، رغم أن الليل يدخل على كل المناطق فى الساعة التاسعة.. لم يكن هناك أحد بالبهو هذه المرة. جلست وحدى أدخن، فإذا بى أراه خارجًا من الصالة على مهل ينظر إلى نظرة أطفال. كأنما يقول لى ها آنذا عدت إليك.. لم يجلس جوارى. ألقى التحية وذهب إلى النافذة ينظر إلى الفراغ وراءها.. انتهيت من السيجارة ونهضت لأعود إلى غرفتى لكنه التفت إلى وسألنى أيضًا ما إذا كنت أستطيع أن أبيع له علبة تبغ.

ابتسمت. فكرت أن هذه هى طريقته فى الحصول على السجائر، فهنا لا أحد يبيع التبغ من المرضى وكافيتريا المستشفى أيضًا خالية من السجائر بكل أنواعها.. ناولته السيجارة التى

ينتظرها وأشعلتها له. فكرت أن أقول له أن أصدقائى الذين يزورونني يستطيعون شراء السجائر بكل أنواعها ثم عدلت وفكرت أنه أيضًا له أصدقاء لابد يزورونه. ثم رأيته يبتسم ويهز كتفه ويسألنى: هل تتحدث فى التليفون؟ - أجل.. هل يسمحون لك؟ - طبعًا.. لقد قطعوا الاتصال بتليفونى.

على الفور فكرت أنه سوف يطلب الحديث من تليفونى ليوفر على نفسه ثمن المكالمات. لكنه لم يفعل ذلك، رغم أننى تهيأت لأن أرفض. هل أدرك أننى تهيأت لأن أرفض. ربما.. قلت لأ بتعد به عن الموضوع. الشمس جميلة فى الخارج

مط شفتيه وأصدر صوتًا كأنما يقول بالعربية «طز» مثلاً.. ثم تركنى وذهب لينظر من خلف النافذة. وقفت لحظة مندهشًا، وعدت أجلس أدخن سيجارة أخرى، ليس لرغبتى، لكن لأجد سببًا للبقاء ومتابعة هذا الشخص. كان يبدو سعيدًا مبتسمًا وهو ينظر من خلف النافذة ثم فجأة تجهم وعاد إلىّ. قبل أن يصل إلى المقعد المجاور لى انحرف وأسرع على العكازين داخلاً إلى الصالة المفضية إلى الغرف.. قبل أن يختفى فى الصالة عاد وألقى بعقب السيجارة على الأرض.. نهضت أنا إلى النافذة. تطلعت فوجدت العالم جميلاً جدًا فى الخارج.

حركة الشباب لا تنقطع على الأرض، كنا فى الدور الثالث، والقنال الصغير تتحرك فيه قوارب ملونة، وكل شىء مجلو بالضوء والبهجة.. وقفت أكثر من نصف ساعة خلف النافذة ثم فجأة حطت

على الدنيا غمامة كبيرة، سحب سوداء ظهرت، أظلم الجو للحظات، بل وأمطرت، واختفى الناس فى الأزقة وتباطأت العربات فى الطرقات.. ذلك لن يستمر طويلاً.

هكذا قيل لى عن هذه المدينة.. وسوف يعود الضوء من جديد بعد قليل، ما دمنا فى الصيف. الشتاء هو المخيف هنا. عواصفه شديدة ورياحه تأتى من خلف الأطلنطى عابرة مسافة تقطعها الطائرات فى ثمانى ساعات فانظر كم من بخار الماء تحمله الرياح وكم من السحب تسوقها أمامها.. هكذا قال لى صديقى الذى هاجر من بغداد من ربع قرن ويعيش هنا، والذى اقترح على أن أجرى العملية الجراحية فى هذه المدينة حيث يعرف أطباءها. العواصف هنا تقتلع الأشجار فى الشتاء.. هكذا قال أيضًا وتعجبت لماذا حقًا يكلمنى عن ذلك مع أننا فى الصيف ..

من المؤكد أننى لن أبقى حتى الشتاء..

فى الطريق إلى غرفتى كانت الخادمة تمر بعربة الطعام. طعام العشاء.. تلكأت فى المشى حتى تصل إلى غرفتى. سمعت صوتًا يقول «مسييه» من الباب على يسارى.. لمحته داخل الغرفة ينظر إلى. دخلت مندهشًا من جلسته فوق السرير.. كان شبه مقعى ليس نائمًا ولا مستلقيًا وكان ينظر من النافذة إلى الدنيا فى الخارج.

ـ منظر جميل.

قلت. ابتسم ثم ضحك بلا صوت ثم عاد إلى حالة عدم الاكتراث وأصدر صوتًا بشفتيه يعنى «طز»، تمامًا مثلما فعل من قبل.

كانت الخادمة قد دخلت إلى الغرفة من قبل ووضعت صينية الطعام على المنضدة القريبة. مد يده وأمسك بالصينية وقال لى..

- افتح النافذة..

- لماذا؟ - افتح النافذة بسرعة..

فتحت النافذة فاندفعت نحوى كتلة هواء بارد فكرت أن أغلقها لكنه صرخ ينهرنى فظللت أمسك بالضلفة المفتوحة بقوة وهو راح يضحك بلا صوت وهو يؤرجح صينية الطعام فى الهواء ثم يقذف بها إلى الخارج. لقد فعل ذلك بحركة سريعة مدهشة وظلت الصينية فى يديه بينما اخترق الزبادى والجبن والخبز والمربة الهواء والمطر واستمر يضحك وأنا أغلقت النافذة فى غاية الدهشة فى لحظة وجدت معنا الممرضة الشابة فى غاية الغضب تتحدث بسرعة فائقة إليه. وهو ينظر إليها باستنكار طفولى عذب ولا يتكلم فقط تتحرك شفتاه وأنا صرت فى غاية الخجل. ماذا يحدث لو كلمتنى أيضًا تلومنى على فتحى النافذة. لو لم أفتحها لما قذف بالطعام. كيف عرفت أنه فعل ذلك فى نفس اللحظة، ذلك ما شغلنى، ربما كى لا أهتم بما تقول إذا كلمتنى. لكنها خرجت فابتسم وأتى بالحركة البذيئة التى فعلها الغجرى من قبل وأنا خرجت بهدوء ودون كلمة آخذًا طريقى إلى غرفتى.

على سريرى استلقيت ورحت أفكر فى هذا الرجل.. لماذا يشحذ منى السجائر. لماذا ينظر دائمًا من النافذة، ولماذا قطعوا عنه الاتصال التليفونى؟.. لم أصل إلى أى سبب لكنى فكرت أنى دائمًا أراه وحده فى غرفته، حتى فى ساعات الزيارة حين أصطحب أنا

صديقى إلى البهو لندخن السجائر معًا أراه فى غرفته وحده. أجل. كنت أنظر إلى الغرف المفتوحة رغمًا عنى وأراه جالسًا فوق السرير، مقعيًا ينظر إلى الدنيا خلف النافذة. لابد أن أحدًا لا يزوره. لماذا إذن لا يغادر المستشفى، الكثيرون ممن أصيبوا فى الحوادث يغادرونها على عكاز أو عكازين، يكملون العلاج فى منازلهم، لم أصل أيضًا إلى سبب واضح لبقائه، وتناولت عشائى وجلست أقرأ فى الصحف العربية التى يحضرها لى صديقى، ولم أشعر إلا وكل شىء حولى صامت. لقد انتصف الليل إذن. ووجدت نفسى أنهض وأترك الغرفة وأمشى إلى حجرته. ترددت لحظة ثم فتحت الباب بهدوء، ونظرت فوجدته جالسًا فوق السرير يتأمل الظلام خلف النافذة، ثم يشعر بحركة الباب وهو ينفتح ولا بأنفاسى. أغلقت الباب بهدوء وعدت إلى الغرفة. راودتنى رغبة أن أذهب إليه مرة أخرى. أدخل وأجلس معه وأتحدث معه ببطء وأطلب مه أن يحدثنى ببطء لأفهم لكنى فكرت فى لا جدوى ذلك لى. فبعد غد سوف أغادر المستشفى وأنساها كلية. وسحبنى النوم وتركت نفسى له يسحبنى فى الحقيقة لتوقظنى الممرضة الحسناء فى الصباح تعطينى الدواء. قالت بون چور فقلت بون چور أيضًا ثم سألتها عن اسم الرجل الفرنسى الذى ألقى بالأكل من النافذة أمس. ابتسمت وقالت: «تيرى». اندهشت لنفسى وأنا أسألها عنه فى هذا الوقت المبكر كأنما كان الأمر يشغلنى طوال الليل وأنا نائم.

- هل يفعل ذلك دائمًا؟

- تقريبًا.

سـألتـهـا وأجـابت وقـبل أن أسـألهـا عن شـىء آخـر خـرجت.. لم أنتظر حـتى أتناول طعـام الإفطار، لم أدخل إلى الحـمـام، لم أغـسل وجهى، خـرجت من الغـرفـة إلى الصـالة قـاصـدًا بهـو التـدخين، كنت حـافيًا ولا أدرى، وكـان البـلاط الرخـامى باردًا ولا أدرى أنى حـاف، وفى البـهـو وجـدت تيرى يقف ينظر من خلف النـافـذة. كـان الضـوء يغمر الدنيا فى الخارج، وينسكب من الزجاج ليغمر البهو أيضًا.

بون چور تيرى..

قلت. فالتفت إلىّ مبتسمًا

- بون چور مسييه.

ابتسم وتقدم نحـوى على عكازين. فكرت أن أقدم إليه سيجـارة لكنه فـجـأة توقف ونظر إلى لحظات طويلة ثم رفع ذراعـيـه عن العكازين فسقطا إلى جواره على الأرض وأحدثا صوتًا متقطعًا حتى استقرا وظلت ابتسـامتـه هو مسـتـمـرة وأنا أخـذنى الخـوف أن يقع لكنه فـاجـأنى ومـشـى؟ ثم جـرى عـدة خطوات، ثم عـاد، ثم انحنى وأخذ العكازين ووضعهما فى مكانهما تحت إبطيه وتحدث بفرنسية سـريعـة أدركت منهـا أنه قـد ضـاق ذرعًا بهـمـا وأنـه لا يدرى لماذا هو هنا حتى الآن، وتركنى ودخل إلى الصـالة فى اتجاه غـرفتـه. ظللت أنا فى مكانى لا أجد تفسيرًا لأى شىء ولمحت فى الصالة الممرضة الحسناء خارجة من غرفته تتحدث بعصبية. فيما يبدو ألقى بطعام الإفطار من النافذة..

طائر البحر الوحيد

- أنت اليوم جميلة جدًا.

واختطف قبلة. خجلت صار وجهها شمس صباح. جرت من امامه. دارت حول ثلاث نخلات متباعدة. لم يكن فى الحديقة أحد بالقرب منهما. استندت إلى جذع نخلة. اقترب منها. صارت أنفاسه فوق عنقها همست.

- أنت حبيبى.

أخذها من يدها. أحاط كتفيها بذراعه. مشيا على مهل لا يتحدثان. رائحة أشجار الليمون تنشر فى المكان شعورًا بالنشوة. سألها.

- ماذا قلت وأنت مستندة إلى جذع النخلة.؟

- هل ستسافر حقًا؟

لم يرد

- ألا تغامر هكذا؟

أجاب.

- المغامرة فى البقاء. أنظرى إلى هذا الطائر.

نظرت. رأت حدأة تهبط فوق نخلة تحمل من بينها عشًا صغيرًا وتطير عاليًا. حين سقط شىء من العش جريا إليه. وجداه عصفورًا صغيرًا بلا ريش

التقت عيونهما مرتبكة. حمل العصفور الصغير ووضعه جوار سياج من الأشجار يحيط بحوض من الزهور الجافة وعاد إليها. صرخت مشيرة إلى العصفور الميت. رأى خطًا أسود يمسك بالعصفور بين فمه ويختفى به تحت السياج. أخذها إلى صدره. كانت ترتعش. راح يربت على ظهرها.

قال وهما يسيران فى اتجاه الشاطئ وقد تباعد كل منهما عن الآخر دون أن يدرى

- كيف أمضيت الليل أمس؟

- نمت.

انطلقا فى الضحك. مرت سحابة رمادية ألقت بظلها فوق الأرض. دائمًا تكذبين.

ابتسمت وقالت:

- استمعت إلى فيروز.

هى تحب فيروز كما يحب هو فيروز. هى تحبه وهو يحبها . هى لا تريده أن يسافر وهو لا يريدها أن تسافر. سفره لا يعنى بقاءها. يعنى سفرها أيضًا. هكذا شعور المحب دائمًا. أمس مساء قالت لنفسها ذلك أيضًا فجأة سألها حين ازدادت رائحة الليمون فى الفضاء.

- هل تحبين رائحة الليمون؟

أجابت.

- أكره طعم الملح.

سكت لحظات. قال.

- كفى عن البكاء يا حبيبتى.

وأحاطها بذراعه إذ اقتربا كثيرًا الآن وتأمل الحديقة الواسعة التى شهدت ثلاثة أعوام من اللقاءات. قال لها أول مرة:

- أحب أن آتى هنا فى الخريف إنها عادة لى.

تساءلت

- من قبلى كنت تأتى؟

- أجل. كنا ونحن أطفال يأتون بنا فى رحلات مدرسية لنرى الحديقة وقصر الملك فاروق، كانوا يتحدثون كثيرًا فى التاريخ. أحببت الحديقة وأحببت القصر ومشهد العشاق فى الخريف.

الآن وصلا إلى اشاطئ فوجداه خاليًا. غير أنهما لمحا فوق صخرة بعيدة شابًا وفتاة جالسين حولهما الفضاء الأبيض شديد الاتساع جلسا على الرمال متجاورين، أغمضت عينيها وهى تجلس، ضغط بكفه على يدها فى الرمال سرح كل منهما بصره عبر المياه الزرقاء والموج المتواكب فى هدوء. كانت هناك نسمة باردة خفيفة. ترك كل منهما نفسه يشرب الهواء النقى. لم يكن الدفء السارى من يد كل منهما إلى الآخر كافيًا. التصقت كتفاهما. قالت:

ـ هل يمكن أن تأتى حدأة إلى حديقة عامة؟

قال بهدوء:

حدثينى ماذا ستفعلين الليلة؟

ـ لا شئ

ـ وبعد؟!

سكتا قليلاً وقالت:

ـ هل تضايقت من أبى أمس؟

ـ أجل إنه.. رجل جبان جدًا.

بدا منفعلاً. قالت بهدوء

ـ وأنت أيضًا يضايقنى أبوك كثيرًا.

ـ ماذا تقولين. إنك تشتمين أبى.

ـ أنت أيضًا شتمت أبى. أدرك أنه فعل ذلك حقًا.

ـ لكن أباك يستحق.

وأبوك أيضًا يستحق انظر.

أشارت إلى الفضاء فوق مياه البحر فلم يفهم ماذا تعنى. قالت:

ـ طائر نورس فى الخريف.

سمع المرأة العجوز التى رآها على الشاطئ عصر أحد أيام الصيف الماضى تسأل زوجها «هل تؤكل طيور النورس؟» وسمع زوجها يجيب «بنى آدم إذا استساغ شيئًا أكله»

وحين تطلع ـ ذلك اليوم ـ إلى أسراب النورس وهى تهبط إلى الماء ثم ترتفع فى الفضاء لتعود وتهبط من جديد لترتفع محلقة قال لنفسه ويل للأسماك الصغيرة.

كان الوقت ـ ذلك اليوم أيضًا ـ يقترب من الغروب. الشاطئ يكاد يخلو من المصطافين وهو جالس فوق صخرة على الرمال بالقرب من المرأة العجوز وزوجها، وبعيدًا وسط الماء رجل ينظف حصانًا، وخلفه مدافع طابية المكس التى لم تفلح فى صد الأسطول البريطانى ذلك اليوم البعيد جدًا..

كانت حركة طيور النورس متناغمة. طابور يهبط وطابور يصعد دائرًا خلف الطابور الهابط. والطابور الهابط يصعد من جديد من الناحية الأخرى ليتم الدورة ويعود. دائرة واسعة هادئة ما لبث أن أسرعت من تواترها. لم تقابله ـ ذلك اليوم أيضًا ـ إذ كانت تركته فى اليوم السابق لإصراره على السفر. قال:

- لو كنت تركتنى العام الماضى كان قد مضى عام على سفرى وكنت عدت الآن.

ازدهرت عيناها السوداوان فجأة وقالت:

- أسمعت يا حبيبى؟ الإنسان هو الذى يضيق على نفسه. صدقنى. الإنسان هو الذى اخترع الحكاية التافهة التى تؤكد على أن الحياة الزوجية لابد لها من استقرار فى مكان تحيطه الجدران ويؤثثه الفرش. لقد تزوجنا رغم كل الظروف وسيأتى اليوم الذى نقيم فيه بيتًا مستقلاً..

- ستعودين تدورين وتدورين بكلام الأغانى وحين تعودين إلى بيتكم تبكين.

أمك تقول لى ذلك وأبوك يهددنى.

ضحكت.

- بالأمس لم أبك. كنت فرحانة.

كانت تكذب وهو يعرف أنها تكذب وهى تعرف أنه يعرف وكل منهما يحب كذب الآخر. قال:

- نقوم.

- إلى أين ؟

لابد أن أرتب الحقائب. فى الصباح لن يتسع الوقت. السفر للقاهرة سيستغرق الوقت كله والطائرة ستقلع فى الرابعة عصرًا..

راحت تتأمل الرمال أمامها وتخط بإصبعها خطوطًا لا معنى لها. قالت هامسة.

ـ لقد حزمتها كلها أمس وأنت نائم إنها حقيبة واحدة.

اتسعت عيناها يتأملها فقالت:

ـ فى العام الماضى كنت أجرى منك على الشاطئ ولا تلحق بى. فى العام القادم سنجرى أنا وأنت وهو. ماذا سنسميه؟

ـ اتركى ذلك لحينه. ارسلى لى صورته فور حضوره.

ـ أما زلت مصممًا على السفر؟

سألته فلم يرد. كان طائر النورس قد اقترب من الشاطئ ثم عاد طائرًا بسرعة إلى الفضاء نحو الشمال. لم يكن منتظمًا فى حركته مثل طيور الصيف الماضى. إنه طائر وحيد. كان بين طيور العام الماضى طائر قوى صعد عاليًا فوق كل الطيور وظل يصعد كأنما يبغى السماء ولن يعود. كان يحمل شيئًا ضخمًا. لم يكن سمكة صغيرة. كانت واحدة من «الكابوريا» لمحها الطائر تخرج من بين الصخور فخرج عن السرب والتقطها بقوة وأسرع فى الفضاء. وظل صاعدًا لا يترك الكابوريا. هل كان يعرفها هذا الطائر المجنون؟ لقد تجاوز الآن كل الطيور. كان العجوز وزوجته يراقبان المشهد أيضًا معه وكان فى الكون صمت جليل قطعته صرخة هائلة «غاق.. غاق ..غاااااااق» تلتها صرخات رفيعة حادة وصار الطائر يهوى بقوة ضاربًا الفضاء بجناحيه بعنف وسمكة الكابوريا تسقط خلفه

على مهل. حين اصطدم الطائر بالموج قفز وعاد فسقط وجناحاه لا يكفان عن الخفقان ثم طواه الموج وصرخت طيور النورس وتبعثرت فى فزع غاق.. غاق.. غاق.. لحظات انجلى التوتر عن الصمت العميق المبهم ونظر إلى العجوزين فقال الزوج لقد غرست سمكة الكابوريا إحدى سيقانها الحادة فى جسم الطائر القوى فهوى. إنها حادثة نادرة الوقوع..

قام آخذًا بيدها. راحت تنفض بيدها الأخرى ما علق بفستانها من رمال. رأى الطائر الوحيد مسرعًا فوق الماء نحو الشمس التى أوشكت عى المغيب. لم يشأ أن يحكى لها حكاية طائر العام الماضى، ولم يقصها عليها قط منذ ذلك اليوم لكنه لم ينسها ولا يظن أنها ستغيب عن الذاكرة.

إحساس قديم يستيقظ

يد الطفل الصغير الهشة تعبث فى قلبه. شىء يريد أن يخرج من صدره. آهه صرخة. دمعة. أى الرجال الضعفاء هو؟. أى الرجال الأقوياء!؟ هو يعرف أن الحياة لا تعطى أحدًا الفرصة طول الوقت. يعرف معنى الخطأ التراچيدى وعواقبه، لكن من ذلك الشيطان الذى جعل حياته ضيقة إلى هذا الحد؟.

لا يستطيع أن يبنى لنفسه حياة أخرى، ولا يستطيع أن يهدم حياته.. قصته الجديدة إذن ليست أكثر من نزوة..

فى البداية اعتقد ذلك. وجد نفسه قادرًا على الابتعاد عنها هو الرجل الذى غادر الأربعين بخمس سنوات. لكنه دائمًا يقابلها فى الطريق. فى أماكن لا يتوقع وجودها فيها. بعد انقطاع طويل وجدها جالسة فى المطعم اليونانى الصغير مع صديقة لها جوار

سينما أوديون. ما الذى جعله يقرر دخول هذه السينما التى انقطع عنها زمنًا طويلاً، ويعود لعادته القديمة، الغداء فى المطعم الصغير المجاور قبل دخول حفلة الساعة الثالثة. لطالما فعل ذلك حينما كانت تلك السينما تعرض الأفلام السوفيتية. سينما عجيبة حقًا. لقد تخلت عن الأفلام السوفيتية قبل البريستوريكا بسنوات.. لقد اختارها السوفييت مدركين موقعها الممتاز، لكن الذى حدث أنه لم يتردد عليها المناضلون بل تردد عليها العشاق من كل الأعمار. من طلبة المدارس والجامعات والموظفين والعمال والحرفيين المطرودين من الجنة فى كل مكان. على الشاشة كانت تجرى وقائع الحرب الثانية، معظم الأفلام كانت عنها، وعلى المقاعد تجرى وقائع أخرى. على الشاشة تسمع أصوات طلقات الرصاص، وعلى المقاعد أصوات القبلات تحمل طعمها الحلو ونداوة الشفاه والتهابها. كلمها فى المطعم وكلمته.

هل تدخلين هذا الفيلم الأمريكى؟

- أجل. جئنا من أجله.

- إنه فيلم كاراتيه.

- نوع من الجنون، خروج على المألوف، سئمت الأفلام الجادة.

- وأنا أيضًا.

وفكر فجأة أنه أخبرها مرة عن عادته القديمة فى الغداء فى هذا المطعم الصغير كلما دخل هذه السينما. هل تكون قد قررت أن

تجـرب مـا كـان يفـعله؟ لابد. أحس ببـعض الثـقـة. وكـانت هـى قـد حـجـزت مكانين لهـا ولصـديقـتهـا فـحـاول أن يجـد مكانًا لامـتـلاء السـينما، كـان يعرف أنـه بالكاد سيجد مكانـا له. كان حشد الصـبيـة والأطفال أمام السينما لا يصدق.

ووقف مـعـهـا وصـديقـتـهـا أمـام السـينـمـا قليـلاً. رآهـا مسـرورة كعادتها، عيناها العسليتان لامعتان مزهـوتان وشفتاها الصـغيرتان المكتنـزتان لا تكفـان عن الابتسـام المبهـج. لقـد عـاد إلى حـال الفـتـى المراهق يكاد ينكمش أمـام جـرأتهـا مع أنه لـو وضـعـهـا فـى صـدره لاختفت تمامًا كيمـامـة صـغيـرة وادعـة. هـى حقًا فـى حجم اليـمـامـة وهو يشتهيها بعمق. يكاد صـدره ينفجـر. يكاد ينحنى يقبلها قبلة خاطفـة فـى الطريق وأمـام حشـد المنتظـرين لدخول السـينمـا وتحت الشمس البيضـاء. ليس هذا مناسبًا للذى ينيف على الأربعين. وهـى أيضًا ليست صـغيـرة فى العمـر هو يعرف، هى قـالت له ذلك، لكنها لا تبـدو أكبـر من فـتـاة فى العـشـرين. هى رياضـيـة من زمـان وهو كسـول من زمـان. لقد أمضت نصف حيـاتها فى النادى، وهو أمضى كل حـيـاته فـى السـرير يخلق القـصص الوهمـيـة ويهـيم مع أغـانى عـبـدالحليم حـافـظ. لم يحب أبدًا أغـانى فـريد الأطرش الحـزينة. حزن عبدالحليم حزن شجى ونبيل. حزن فريد حزن فضائحى. إنه لا يعرف معنى فضائحى لكنه يشعر أنها الكلمة المناسبة.

فى السـينمـا لم يجـد فـرصـة للجلوس جوارهـا امـتـلأت السـينمـا ووجد فكرة أن يطلب من الجالس جوارهـا أن يبدل مكانه معه فكرة

سخيفة. تسلل بهدوء فى الظلام خارجًا.. سيراها بالتأكيد مرة أخرى فى اللحظة التى يبدأ فيها النسيان.

•••

هذه المرة لا يريد أن ينسى. يختنق من عدم وجودها. ما الذى يمنعه من البوح بالحب؟ لابد أنها تنتظر منه ذلك. هى المرأة ذات الوجه الأسمر الصغير المستدير الطفولى. ذات الابتسامة العذبة البهيجة. ذات الجسد دقيق الخصر بديع التقسيم. هذه إمرأة خلقها الله فأحسن التكوين. قطعة نحت رومانية عليها ملابس تتسلل من تحتها دعوات الحب. هى الإحساس القديم الذى تراكم عليه غبار كثير. بان العالم متسعًا أبيض ملىء بالزهور والفراشات الملونة. هى عذاب السهر ومتعة انقضاء الليل بعيون مفتوحة تستقبل نسمات الفجر بوداعة. باختصار، هى الرومانسية القديمة معجونة بالاشتهاء، كئوس من اللذة تتسكب فى روحه حين يراها. يتخيل أنهما معًا يمارسان طقسًا نرفانيًا. طقس فناء طقس اكتمال والتحاق بالأثير. يحل كل منهما فى الآخر، روحان فى جسد واحد.

يشتهيها إلى درجة الارتباك فى بيته. يكاد يخطئ أكثر من مرة وينادى زوجته باسمها. لا علاقة بين حرف الهاء الذى يبدأ به اسمها وحرف الزاى الذى يبدأ به اسم زوجته. الهاء يخرج من الصدر والزاى يخرج من الفم واللسان. الهاء حرف ينفض معه ألمه وصبواته وعذابه. لقد أصبح يبذل مجهودًا جبارًا حتى لا يخطئ فى اسم زوجته، وتخلى، ناسيًا، عن عاداته الطيبة فلم يعد يستمع

إلى الأغانى القديمة، كان يفعل ذلك ليدفع ببعض القوة فى الماكينة الهرمة. ماكينة الزواج. ولا بد أن زوجته تعرف ذلك جيدًا. وتعرف أنهما معًا صارا ملكًا للأبناء. خدما لهم وانتهى الأمر. تقول له هذه سنة الحياة. يقول فى نفسه: هذا من أثر الحكومات العسكرية فى العالم الثالث..

•••

كان يظن أنه استطاع أن ينفد بجلده من العالم الثالث وبؤسه، سافر مبكرًا إلى الخليج وعاد ووفق فى الزواج فمضت عليه عشرون سنة الآن، ويحتاج من جديد أن يقول كلمة «أحبك». فليغامر بالحديث بالتليفون.

غامر ووجد صوتًا غليظًا على الناحية الأخرى. يالأصوات الرجال البائسة. ولم يتكلم. فى اليوم التالى ميز صوتًا رجاليًا آخر. الأول زوجها لابد والثانى ابنها، وحين أتاه صوت نسائى وجده جميلاً بحق لكنه ليس هو الصوت الذى يريده.. إنه صوت ابنتها. وكانت هى أكثر شجاعة منه.

طلبته فى التليفون ووجدته. كان ينتظر.

- كنت أعرف أنك الذى تطلبنى كثيرًا هذه الأيام ولا تتكلم.

قالت ذلك، فقال بألم:

- وحشتينى.

أنت أيضًا وحشتنى.

قالت ذلك بصوت مفعم بالود

ـ أريد أن أراك.

ـ أنت تعرف عملى. سأكون هناك بعد أسبوعين حيث سنسافر كلنا إلى الغرفة.

لم يتردد. بعد ساعة عادت زوجته من مشوار فى الخارج.

عرض عليها قضاء أسبوعين فى الغردقة.

ـ ومن أين لنا بالنقود.

ـ لدى مبلغ كنت أدخره لمفاجأة كهذه.

ورقص أطفاله طربًا. وبانت السعادة على وجه زوجته. هذا مكان حالم طالما سمعوا عن جماله: البحر والبساطة والغوص وصيد الأسماك.

فى الغردقة نزل بالفندق نفسه الذى تنزل فيه. فى صالة الطعام رآها مع زوجها وابنتها وابنها. كان هو جالسًا حول المنضدة البعيدة، المقابلة مع زوجته وولديه، ابتسمت ونهضت فنهض بعدها بدقيقة. جسده كله راح يختلج. وأمام باب المصعد وجدها واقفة فوقف همس:

ـ وحشتينى كتير.

ـ وأنت أيضًا.

فى المصعد صارا وحدهما أيضًا..

ـ فى أى دور تسكن؟

- فى الثالث.

- مثلنا تمامًا. فى أى غرفة؟

- ثلاثة أربعة أربعة.

المجاورة لنا. غرفتنا ثلاثة اثنين اثنين.

- صدفة عجيبة.

قال بصوت لا يكاد يسمع. توقف الأسانسير فى الدور الثالث. أمام البابين المتجاورين للحجرتين توقفا. فى اللحظة التى امتدت فيها يدها تضع المفتاح فى الباب مد هو يده. فأمسك بكفها الصغير الناعم. لقد اختلجت اليد فى يده فانحنى وقبل اليد التى صارت باردة للغاية ثم تركها. أدارت المفتاح ودخلت غرفتها. فعل هو نفس الشىء. فى غرفته أدرك أنه قام خلفها بلا هدف محدد. هو لا يعرف لماذا قامت قبله. ولا يذكر أى انفعالات كانت بوجهها حين قبل يدها لأنه ببساطة لم ينظر إلى وجهها. ركز كيانه فى هذه القبلة الصغيرة البسيطة.

سمع باب غرفتها يفتح من جديد ثم يغلق سمع صوت قدميها تتجها إلى المصعد. لم يخرج من الغرفة سمع صوت توقف المصعد ثم تحركه..

هل كانت تدعوه إليها وأخطأ الفهم. هكذا يكون قد ضيع ما عاش ينتظره منذ ثلاثة أعوام أول لقائه بها. إنه على كل حال غير نادم. لم يكن بقادر أن يفعل غير القبلة على اليد. هى لم تشجعه أبدًا ...!! هل كان يريد شيئًا غير ذلك حقًا؟!.

وحين عـاد إلى زوجتـه وولديه بالمطعم. رآها تجلس مكانهـا بين زوجها وابنها وإبنتها. كانت ترفع حينًا عينيها إليه وتبتسم. هى إذن لم تغلق النوافذ كلها بعد. أمامهما أسبوعان سيحاول فيهما من جديد..

ثلاث قصص حب وقصة رابعة

-١-

زهرة القرنفل

كان رشاد شابًا وسيمًا. أبوه مفتش فى السكة الحديد. فاطمة أيضًا كانت جميلة. نحيلة وطويلة ولها عنق عال وأبوها مفتش فى السكة الحديد فى الحى شباب كثيرون لكنهم ليسوا مثل رشاد، ولا فى وسامته. كان يمشى محوطًا باحترام خلقه الله معه. كان من ذلك النوع من الناس الذى يحبه الجميع وبلا سبب.

وكان فى الحى فتيات كثيرات لكن ليست مثل فاطمة ولا فى جمالها. وكان فى الحى آباء كثيرون ولكن ليسوا مفتشين.. الأولاد يسمعون النساء تقول رشاد لفاطمة، ولا يعرف الأولاد السبب.

النساء أنفسهن لم يكن يعرفن السبب، أو من الذى قال ذلك أول مرة، أو من التى قالت صار الأولاد يقولون فى العلن ما تقوله النساء، وكذلك فعل الرجال، لكن فى السر.

كان رشاد يشير إليه كل مساء. اختاره هو دون الأطفال يذهب إليه. يضع رشاد فى عروة چاكت البيچامة قرنفلة، ويعطيه فى يده رسالة صغيرة مطوية لها ملمس ناعم.

تستقبله فاطمة مبتسمة تنحنى عليه. تأخذ القرنفلة يعطيها الرسالة يفتح لها يده فى وداعة. تضع فيها رسالة أخرى. أصغر وأكثر نعومة. وتعطيه قطعة شيكولاته، وتعطيه على خده قبلة صغيرة، وتعبث قليلاً فى زرار البيچامة ثم تتركه.

حين انقطع عن حمل القرنفلة كان ذلك لأن رشاد التحق بالقوات البحرية. رأى فاطمة تقابله فى الطريق وتبتسم وصارت ترتدى ملابس بيضاء بها خطوط زرقاء ولم تلتحق مثل رشاد بالقوات البحرية ثم.. صارت تقابله فى الطريق ولا تبتسم. لم تعد ترتدى ملابس بيضاء بها خطوط زرقاء. صارت ترتدى ملابس سوداء بلا شرائط. رأى النساء فى صمت. صار الأولاد فى صمت. ورأى الرجال يدخلون إلى بيت رشاد فى صمت ويخرجون قطعًا من الصمت لقد أصابت الطائرات الإنجليزية والفرنسية زورق البحرية الذى كان فوقه رشاد ابن المفتش.

-٢-

بعيدًا عن العيون

خمس سنوات مرت. ربما ست. وقت طويل مضى. لقد كبر وطالت قامته. اختفت فاطمة من الحى. تركت بيت أهلها وقليلاً ما تأتى لزيارتهم مع زوجها. كلما أتت قابلته فى الشارع. التقت عيناها بعينيه. كأنما تبحث عنه لتراه. فى كل مرة يبدو له أنها تبحث عنه، هو بالذات. لم يكن يجد أى معنى لذلك. هى لم تكن تنظر إليه. أجل. لقد قالت له مرة قديمًا، ومن زمان، إنه يشبه رشاد. لقد تذكر ذلك الآن. راح ونظر إلى المرآه. لابد أنها تتذكر رشاد كلما نظرت إليه. هل هو حقًا يشبه رشاد؟. دقق النظر فى المرآه. اكتشف أنه لم يعد يذكر وجه رشاد. تركها تنظر إليه كلما أتت. هل كان يستطيع أن يمنعها؟ بل راح كلما رآها اقترب منها لتنظر إليه أكثر. ثم راح يذاكر دروسه فى الأصيل كل يوم بعيدًا عن البيت بعيدًا عن الشارع، عن الحى كله، عن الناس والمركبات. فى بقعة من الأرض خالية. وسيعة لا يوجد مثلها اليوم. لم يعرف مثلها أيضًا ذلك الوقت. أشجار وظلال وفضاء أبيض رائع لا يقطعه إلا طائر يمضى مسرعًا لينام. ويظل هو يذاكر دروسه تحت مصابيح الشوارع الخالية، حتى رأى ذات مساء إبراهيم موسى يقبل نادية همام. إبراهيم أحسن لاعب كرة شراب فى الحى، نادية ذات العينين الخضراوين، الطويلة مثل فاطمة التى رحل أهلها عن الحى فلم تعد تأتى أو تنظر إليه. كان إبراهيم ونادية يقفان خلف جذع

شجرة كافور، شجرة قديمة جذعها ضخم. رآهما لأنه كان يمشى ليقف تحت الشجرة، رآها ورآياه، يعرفهما ويعرفانه جيدًا، ارتبكا وانصرفا كأنما لم يرهما أو يرياه، أسرعا فى الطريق، لم يلتفت إليه، ابتعدا عن بعضهما مشى كل منهما إلى ناحية، ظل هو واقفًا فى مكانه، تذكر «بيرت لانكستر» حين يقبّل «فرچينيا مايو» فى الأفلام، قرر أن لا يخبر أحدًا من أصحابه، وفى اليوم التالى قابل إبراهيم موسى فى الحى فرآه ينظر إليه بطيبة ووداعة، ورأى نادية تقف خلف الشباك تنظر إليه بضراعة، لن يقول شيئًا لأحد أبدًا لن يقول.

كان أبو نادية صعيديا شرسا ولها أخوة كبار. كان أبو إبراهيم فلاح طيب أبناؤه صغار. ضرب أبو نادية أبا إبراهيم. ضربت أم نادية أم إبراهيم، راح أخوة نادية يبحثون عن إبراهيم الذى اختفى قطعت نادية شرايين يدها على طريقة ماجدة فى فيلم المراهقات وبالكاد تم إنقاذها، رحلت أسرة إبراهيم عن الحى بعد الخزى الذى لحقهم اثر هزيمتهم، رحلت أسرة نادية عن الحى أيضًا لكن من العار.

-٣-

فى سبيل التاج

بعد سنوات، لا يدرى خمس أم ست، ربما سبع، كانت مدافن «عامود السوارى» تفتح لاستقبال جثث القتلى من الجنود كان جمال عبدالناصر قد صرخ أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة،

والشوارع ملأى بملصقات تعلن أن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة وجاءه حمدى يقول أنه يحب سعدة..

- سعدة لم تتجاوز المرحلة الابتدائية بعد يا حمدى! هل يمكن أن تعرف سعدة الحب؟

لكن حمدى أخرج من جيبه خطابًا من سعدة يقول «اخوتك يضايقونك لأنك قصير وهم طوال. طيب، لا تزعل لقد قرأت فى مجلة الكواكب أن ميكى رونى الممثل الشهير قصير جدًا لكنه لم يتضايق، بل أصبح ممثلاً أشهر من زملائه الطوال.

وقال حمدى أن اخوته يضايقونه لأنه فى حقيقة الأمر مثقف يحب الشعر والقصص وسأله قائلاً هل قرأت رواية فى سبيل التاج؟، أجابه لا. قال حمدى أنه قرأها عشر مرات وأنه قرأ كل كتب المنفلوطى. وسأله ماذا تريد منى يا حمدى الآن؟. أجاب حمدى:

- تبحث معى عن سعدة.

- هل اختفت؟

- أجل أخفاها أهلها عند أقارب لهم.

وبحث كثيرًا مع حمدى. فى كل حى من أحياء الإسكندرية عرفا أن لها أقارب فيه وكلما عثرا على سعدة عاد أهلها وأخفوها فى مكان آخر. حمدى، رغم أن اخوته ينبذونه، لا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء فعائلته قوية، لذلك لم يجد أهل سعدة ضعيفًا غير ابنتهم وكانت بالفعل صغيرة، وضعيفة.

طالت أيام البحث وليالى السهر والحديث عن سعدة التائهة، وحفظ حمدى عبارات المنفلوطى عن ظهر قلب، وتمنى أن يضمه مع سعدة قبر واحد بعد أن عجزت الحياة عن ضمهما معًا، وكانت سعدة تكبر وتنمو كأنها تعاند أهلها وعرفت هى الطريق إلى حمدى لم يستطع أحد أن ينهى قصة الحب العجيب إلا الزواج الذى تأجل أسبوعًا لوفاة جمال عبد الناصر ودخلت البلاد فى الحداد..

- ٤ -

«فى الثلاثين»

استيقظت من نومى فى مدينة القاهرة، دائمًا حين استيقظ أدرك أنى فى بالقاهرة..

استيقظ معى صديقى الذى يسكن معى. جئناها من طرفين بعيدين. أنا من الإسكندرية وهو من أسوان. كان يمكن أن نلتقى فى مكان آخر من الكرة الأرضية لو ذهبنا كل فى اتجاه آخر. هكذا يقول صديقى دائمًا.

- تقصد أننى لو مشيت شمالاً من الإسكندرية، ومشيت أنت جنوبًا من أسوان كنا التقينا فى اليابان مثلاً أو أمريكا أو بينهما أقول أنا معطيا الفرصة للخيال فيقول هو:

- بالضبط.

- رغم أن كلامنا سيتعرض للغرق فى البحار والمحيطات وربما القطب الشمالى والقطب الجنوبى.

ـ لكننا فى النهاية سنلتقى لم يكن ممكنًا أن نموت. ألم نلتقى فعلاً معًا. إذن مقدر لنا أن نلتقى أنت مكتوب لى وأنا مكتوب لك.

نضحك من الخيال والنتيجة الجميلة. كان صاحبًا طيبًا وكنت بدورى أطيب منه. استيقظ ذات يوم فزعًا وقال لى.

ـ تصور أنى بلغت اليوم الثلاثين من عمرى. الآن. فى هذه اللحظة فى هذه اليوم بلغت الثلاثين من عمرى

كان يقول ذلك بانفعال. قلت.

ـ يا سيدى كل سنة وانت طيب، إذن سأفتح النوافذ لهواء جديد. وسنحتفل بك اليوم.

لكنه هتف.

ـ انتظر.

وقفت أنظر إليه.

قال فى هدوء وأسف.

ـ المشكلة أنها قالت لى ذلك؟

وقفت مندهشًا مرتبكًا معًا سألته

ـ من التى قالت لك وماذا قالت؟

أجاب:

ـ هى التى عشت معها أجمل قصة حب قبل أن ألتقى بك.

هناك فى أسوان كان حبها هو ظلى الذى احتمى به من الهجير.

لكنها كانت تحمل قلبًا من جرانيت. تركتنى وتزوجت وقالت أننى سأفاجأ يومًا ببلوغى سن الثلاثين دون أن أكون قد حققت شيئًا، أى شىء. لقد تركت أسوان لأحقق شيئًا فى عمرى حتى لا تفاجئنى الثلاثين. لكنى منذ عامين، وربما أكثر، لا أذكر نسيت أحصى عمرى. نسيت حساب الأيام. لماذا تهزمنى حقًا إلى هذا الحد؟ لماذا؟

ورأيته ينفجر فى البكاء.. كنا منذ يومين لا نغادر الشقة بسبب حظر التجول الذى فرض على البلاد..

هل قتلت الهدهد

- ١ -

حيرته البندقية. إنها خفيفة، يستطيع أن يرفعها عاليًا ويصوب، لكن العصافير لا تقع من فوق الأشجار. تطير. يحملها الفزع إلى الفضاء الرحيب، يتابعها ضاحكًا، بعضها يحط على أشجار قريبة، أو على حروف الأسطح، والنوافذ العالية. فيضحك، ويمشى مزهوًا، لكنه لا يعود بعصفور واحد. حديث عهد بالصيد. قال أبوه: كان يود أن يقول له لا تسرف فى القتل.. الولد أراد بندقية مثل زميله، والأم شجعته على ذلك، والوقت براح، فالشتاء فى الإسكندرية يجعلها مدينة أوسع بكثير مما تبدو عليه، وهم يعيشون فى ضاحية العجمى، التى تتسع فى الشتاء أكثر من أى وقت، فكثير جدًا من سكانها فى الصيف مصطافون، يهجرونها مع الخريف،

يتركون خلفهم البيوت الصغيرة الجميلة، والفيلات، مغلقة، إلا من بستانى يعتنى بالأشجار والأزهار. تأتى العصافير فى الصيف مهاجرة من الغرب، فتجد الزحام، تلوذ بالخلاء الصحراوى حول الضاحية، تأتى عصافير الشتاء فتجد براحًا من الأرض والفضاء، تمضى نهارها مطمئنة، يخرج لها بين حين وآخر ولد صغير صياد، لكن الضاحية كبيرة، فالعصافير البعيدة لا تعلم شيئًا عما يجرى لأخواتها، والعصافير التى ترى الصياد سرعان ما تنسى، طيور غريبة، بلا ذاكرة، ثم أن المطر إذا نزل غسل الأرض والأشجار فتتبدل أشكالها، وإذا سطعت الشمس بعد المطر لا يرى الإنسان المشهد القديم، الذى كان قبل سقوط الأمطار، فما بالك بالعصافير المهاجرة، لكن الولد بعد ثلاثة أيام أصاب الهدف.

- ٢ -

- هدهد؟

قال الأب فى دهشة والهدهد الصغير يرتعش بين يدى الولد الذى كانت أنفاسه تتلاحق غير مصدق أنه أصاب الهدف.

- أربيه حتى يكبر...

كان الهدهد صغيرًا جدًا، ربما لذلك لم يشعر بحركة الولد، ولا بصوت اختراق حبة الرش الصغير الهواء وهى قادمة إليه.

- كيف تستطيع أن تطعمه؟

تساءل الأب

- أضع له الحبوب....

ـ هل تظن أنه سيأكل....

أجرب

ابتسم الأب وهز كتفه لا مباليًا. وضع الولد الهدهد الصغير المصاب في ساقه الرقيقة في القفص السلكي، ووضع له إناءً صغيرًا جدًا به ماء وبعض حبات من القمح. في اليوم التالي بدا الهدهد نائمًا. كان متعبًا جدًا...

ـ لم يأكل ولم يشرب

قالت الأم. وكان الولد قادمًا من الخارج مسرعًا.

ـ هناك هدهدان كبيران يقفان على الشجرة التي أمام البيت.

ـ سأصطادهما..

في اللحظة التي أمسك فيها بالبندقية وأسرع بالخروج نادته أمه.

ـ انتظر

ومدت يدها داخل القفص السلكي الموضوع على الجدار الخارجي للمنزل وأمام الحديقة الصغيرة. أمسكت بالهدهد. قدمته للولد

ـ ضعه على أرض الحديقة وابتعد

ـ بعد أن اصطاد الهدهد الكبير.

ـ قلت لك ضعه في الحديقة وتعالى هنا معي في الداخل. لا تصطد شيئًا اليوم.

- ٢ -

وضع الولد الهدهد على أرض الحديقة، ورفع بصره ناحية الهدهدين الواقفين فوق الشجرة القريبة فوجد أحدهما يطير عاليًا ثم يعود إلى مكانه، ثم وجد الآخر ينزل إلى الأرض بسرعة يلتقط شيئًا ويعود يقف على الشجرة.

- تعال ادخل

نادته أمه. دخل ووقف معها خلف النافذة

- انظر ولا تصدر صوتًا.

كان الهدهد الذى سبق له أن التقط شيئًا من الأرض قد نزل إلى الهدهد الصغير ووضع بمنقاره فى منقار الهدهد الصغير ما التقطه من الأرض

- إنه يطعمه بالدود

- لا تتكلم

همست الأم بينما الهدهد الثانى نزل بدوره إلى الأرض التقط شيئًا ثم حط أمام الهدهد الصغير ولقمه إياه. لعشر دقائق أو أكثر والهدهدان الكبيران يلتقطان من الأرض الديدان الصغيرة التى لا يراها الناس ويطعمون بها الهدهد الصغير. ثم طارا عاليًا ووقفا أعلى الشجرة القريبة وكان واضحًا أنهما لا يبعدان النظر عن الهدهد الصغير الذى بدوره حاول أن يطير فلم يرتفع....

ضحك الولد الصغير غير مصدق لما رأى

- إنهما أبواه. أمه وأبوه.

قالت الأم مبتسمة بينما بدا التأثر على الولد..

- سوف أتركه في الحديقة حتى يشفى من الجرح

- طيب وإذا أمطرت الدنيا.

- لابد من نقله إلى القفص

- لقد أكل على أى حال. انقله إلى القفص واترك القفص فى مكانه على الجدار تحت البلكونة بحيث لا يطوله المطر. وفى الصباح أخرجه من القفص إلى الحديقة ليأكل من أبويه.

- هل سيأتيان مرة أخرى

- لن يتخليا عنه

●●●

لثلاثة أيام بعد ذلك صار الولد يخرج الهدهد من القفص وفى اللحظة التى يضعه فيها عل الأرض يظهر الهدهدان الكبيران. أين كانا مختبئين. إنه لا يراهما فوق الشجرة ولا فوق الأسطح القريبة. المهم أنهما يظهران ويبدآن فى إطعام الهدهد.. يحاول الهدهد الصغير بعد ذلك الطيران فلا يرتفع عن الأرض. لا يزال جريحًا.

- حكاية غريبة.

قال أحد الصبية للولد وهو يحكى لهم الحكاية. لم يصدقوه. جاءوا إلى البيت ليروا بأنفسهم كيف يأتى الهدهدان لإطعام ابنهما.

شـاهدوا المشـهـد العـجـيب، وراحـوا يضـحكون، ثم تجـمـعـوا حـول الهـدهـد الصـغـيـر، أمـسكه أحـدهم ينظر إليـه كـأنه لا يصـدق أنه هدهد والهـدهد ينظر إليـه فيـضـحك الولد الذى قـذفـه إلى أعلى ليطيـر. طار الهـدهد لكن لمتـر أو لأكـثـر قليـلاً ثم هوى على الأرض وراح ينـتـفض. كـان الهـدهدان فـوق الشـجـرة قـد طارا إلى أعلى بدورهما، كأنما انتفض قلبهما مع سقوط الهدهد، وتراهن الولد أن الهـدهد سيطير لـو دفعه إلى أعلى أكثر، لكن الهـدهد لم يسـتطع الطيـران. سـقط هـذه المرة ولم ينتـفض.. نظر الولد وهـو يمـسك الهدهد الميت بين يديه إلى الشجرة فلم يجد الهدهدين

ـ ماذا أفعل الآن. ؟

سأل أمـه فلم ترد. هـزت كتفيها. كان هو يفكر أن يدفن الهدهد جوار سياج الحديقة.

ـ هل كان من الضرورى أن تحكى لزملائك.

ـ لم أكن أعرف أنهم سيفعلون ذلك

تركـتـه وانصـرفت لأعمـال المنزل... خـرج هو ومـشى بعـيـدًا عن البيت والهدهد الميت الصغير فى يده.. تركه جوار سور حديقة بيت آخر ومشى. لكن لم يستطع أن يمنع نفسه من الالتفات. كان يشعـر بين لحظة وأخرى أن الهدهد يمكن أن ينتفض من جديد، ويمكن له أيضًا أن يطيـر.. وظل يتـمنى ذلك لعـدة أيام قـادمـة، ولما مـر على المكان الذى ترك فيه الهدهد ولم يجده رآه يطير بالفعل. كان نائمًا، وفى الصباح كان مبتهجًا وهو يحكى لأمه كيف طار الهدهد.

الكلمات المتقاطعة

- ١ -

كنت تعبت من المشى على الكورنيش طول النهار، وكنت تقريبًا شربت كل الهواء النقى الذى يدفع به البحر إلى الشاطئ. إنه يوم مميز أعرفه تمامًا. يوم خريفى طرى مبهج، والنسمة الباردة التى تشيع مع المساء الآن، استقبلها بملابسى الصيفية فيزيد انتعاشى، ويتركز التعب كله فى قدمى، لذلك لا ألوم نفسى على ما فعلت، وسوف أحدث صديقى بذلك حين أقابله. لقد جاء فى الصباح الباكر وطلب أن أصحبه فى زيارة خاطفة:

- لماذا؟

- أنت أصلاً من الإسكندرية وتعرفها جيدًا.

ولأنه لم يكن هناك ما يشغلنى فى القاهرة وافقت. انطلق بسيارته وأنا جالس بالمقعد المجاور له لا أتكلم. أشعل له سجارة كل عشر دقائق تقريبًا، وأحيانًا لنفسى.

فى كافيتيريا هابى لاند فى طنطا جلسنا. قال:

ـ أريد أن أعود.

ـ لكنى هيأت نفسى لأقضى اليوم فى الإسكندرية.

ـ اعذرنى يجب أن أعود.

ـ ليكن.

وما أن جلس بالسيارة حتى سألنى:

ـ ألن تعود معى؟

ـ عد وحدك.

تطلع إلى وجهى قليلاً ثم قال:

ـ اعذرنى مرة ثانية.

ابتسمت وتابعته بعينى وهو يدور بسيارته عائدًا

فى حوالى الثامنة مساء صعدت إلى ديزل التاسعة. مقاعد العربة كلها خالية ويجلس أحد عمال القطار على المقعد الذى يحمل رقم تذكرتى. كان يأكل. أدار المقعد الذى أمامه ووضع فوقه طعامًا. لم يكن من اللائق أن أطلب إليه الانتقال. جلست على مقعد بالصف الآخر ووجدت نفسى أتابعه. شراهة غريبة استغراق كامل

أيضًا وكميات كبيرة من الجبن والزيتون والطماطم والخبز والخيار. وكان الخيار وهو يقضمه يضايقنى صوته جدًا. وحين انتهى من الخيار الذى أمامه أخرج كمية أخرى من حقيبة قماشية تحت قدميه. لماذا لم أبتعد؟ لا أعرف. ظللت أتابعه حتى كادت ساعة كاملة تنقضى حاولت فيها ألا أنفجر غيظًا من صوت قضم الخيار.. لكن ذلك كله انتهى، وتنفست بارتياح، ونهض هو ليعيد المقعد الأمامى إلى وضعه وينفض ما سقط فوقه من بقايا، ويغادر العربة كلها.

انتقلت. لم أجلس على مقعدى الذى كان يجلس فوقه، بل على المقعد الداخلى المجاور للنافذة. وضعت الصحف التى اشتريتها من باعة المحطة فى الشبكة على ظهر المقعد الأمامى، وبدأت فى حل الكلمات المتقاطعة لجريدة المساء، فهى تقريبًا أسهل ما ينشر فى الصحف.

أنا أحب السفر فى الديزل وأكره السيارات. فى الديزل تستطيع أن تتمدد مرتاحًا على مقعدك، وهو يجرى تحتك وبك، وتستطيع حل الكلمات المتقاطعة بكل الصحف فتقتل الوقت والطريق معًا. يقولون أنك تستطيع القراءة فى الديزل أيضًا. أنا لا أستطيع، ولا أقرأ حتى الصحف التى أحل كلماتها المتقاطعة، لذلك لا تجد معى صحف المعارضة، ليس لموقف ما، لكن لأنه لا توجد بها كلمات متقاطعة. هذه مسألة كثيرًا ما فكرت فيها، وكثيرًا أيضًا، وبجد، ما قررت أن أرسل خطابًا لكل حزب معارض أطلب فيه أن تتضمن

صحيفته الكلمات المتقاطعة. وبالطبع لم أفعل. والسبب أننى منذ سنوات كنت أعيش فى غرفة مفروشة بدير الملاك، وكان لى صديق يعمل بمكتب بريد بشارع مصر والسودان. كنت أعطيه الخطابات التى أريد إرسالها لأى مكان فى يده مباشرة حتى أضمن وصولها. الآن أعيش فى الهرم وليس لى صديق فى أى مكتب بريد بالجيزة كلها لذلك لا أرسل الخطابات والسبب أننى منذ عشر سنوات قبل أن أترك الإسكندرية كنت أعيش فى ضاحية المكس الجميلة وألقى بخطابات البريد فى صندوق معلق على جدار كازينو زفير. فى عصر أحد الأيام شاهدت الصبية والأطفال يفتحون الصندوق من أسفل ويسرقون الخطابات.

- حضرتك حاجز.؟

تساءل وهو يقف فى الطرقة مبتسمًا ابتسامته الواسعة وقد تألق وجهه الأسمر بصفاء غريب. أدركت على الفور أنه حجز المقعد المجاور للنافذة، هذا الذى جلست فوقه. قلت:

- أجل، لكن هذا ليس بمقعدى.

ونهضت أنتقل إلى المقعد المجاور فاصطدمت فخذى بالذراع الذى يفصل بين المقعدين. ضايقنى الألم.

- آسف. آسف جدًا. القطار خال وسأجلس فى الخلف.

قال وتراجع على الفورلكنى كنت تضايقت للغاية، فأخذت أرفع أشيائى من الشبكة لأضعها فى الشبكة المجاورة وأقول لنفسى أن

مقعدًا بجانب النافذة لا يجب التفريط فيه لأن الانسان يستطيع أن يضع خده على جانب القطار وينام. لابد إذن أن يعود هذا الشاب غريب الابتسام إلى مقعده، فالركاب يتوافدون الآن، واقترب موعد المغادرة.

عدت أحل الكلمات المتقاطعة لكنى وجدت أن جريدة المساء قد غيرت نهجها فإذا بالكلمات المتقاطعة حافلة بأسماء من نوع «ابن خوفو» و «أخت رمسيس» و «زوجة الذى بنى معبد الأقصر» و «زوج حتشبسوت» وقائمة طويلة من الأسماء العائلية الفرعونية، ولم أجد نفسى أعرف إلا اسم إله الشر فكتب «ست» وطويت الصحيفة..

-٣-

- ممكن؟

كان هو نفسه يطلب أن أفسح له الطريق إلى مقعده بعد أن امتلأ القطار بالصاعدين من محطة سيدى جابر، بدا لى أيضًا شديد الأدب، لكن ما أن جلس حتى تناولت صحيفة الجمهورية وبسرعة فتحتها على صفحة الكلمات المتقاطعة. خفت - لا أعرف لماذا - أن يدخل معى فى حديث من أى نوع. هذه البهجة الشديدة التى تنتشر فى عينيه ووجهه حين يتكلم لم أعهدها فى أحد من قبل. لحسن حظى عاد بظهر المقعد إلى الخلف وبدا أنه سينام.

ابتعد القطار عن الاسكندرية كثيرًا. العربة مضيئة والحقول على الجانبين مظلمة، وأنظر من خلف زجاج النافذة فأرى خيالنا

يتكرر على الجهتين فأكاد أصدق أن هناك ثلاثة قطارات تجرى متجاورة.

ـ ممكن الأهرام؟

سألنى وقد قفزت البهجة العارمة إلى وجهه. فكرت ربما هذا حاله دائمًا حين يتكلم. لكنى لم أرد أشرت إلى الصحف التى بالشبكة فمد يده يسحب الأهرام وعدت أنا أعمل بالكلمات المتقاطعة. بسرعة انتهيت فطويت صحيفة الجمهورية وتناولت الأخبار. ما كدنا نصل إلى دمنهور حتى كنت انتهيت من كلمات الأخبار أيضًا فطويتها وتناولت مجلة المصور لكنى كنت فى حاجة إلى سيجارة. مددت يدى إلى علبة سجائرى فوجدته يسبقنى ويقدم لى سيجارة. رفضتها بشدة سخيفة تشى بأنى أقطع عليه كل طريق. وبأدب، وربما خوف أيضًا، تراجع، لكنه لم يشعل لنفسه سيجارة. بدأت أتضايق من سلوكى معه، ورأيته يعيد الأهرام إلى الشبكة، وتمنيت أن يطلب غيرها فلم يفعل..

فكرت فى عبث اليوم كله، وإنه ما كان على أن آتى إلى الإسكندرية أصلاً، لأنه فى مثل هذه الأيام أيضًا يمكن أن يسقط المطر. لكنى عدت للكلمات المتقاطعة حتى وصلنا طنطا..

ـ حضرتك من الإسكندرية؟.

سألنى باستحياء شديد. أجبت:

ـ فى الأصل. لكنى أعيش فى القاهرة الآن.

ـ مثلى تمامًا. تصور لقد حضرت إلى الإسكندرية اليوم فقط.

ـ أنا أيضًا فعلت ذلك.

عاد وجهه يتألق وقال:

لقد ركبت قطارًا لعينًا. تحرك من القاهرة فى الثانية ظهرًا ليصل الإسكندرية فى السابعة والنصف.

أدركت بحق حجم تعبه. لم يكن لديه غير ساعة يقضى فيها كل حاجاته. فكرت فى نفسى أنا المترف الذى أكملت الرحلة لمجرد أن أستنشق هواءً نقيًا. لكنى لم أشأ أن أتقدم أكثر فتناولت صحيفة الأهرام وبدأت أحل كلماتها المتقاطعة

ـ حضرتك ساكن فين؟

سألنى. أجبت:

ـ فى امبابة..

تألق وجهه أكثر.

ـ هل أجد فى امبابة شقة بألف جنيه!

تأملته قليلاً. قلت:

ـ لن تجد ذلك فى أى مكان.

سكتنا قليلاً. قال:

ـ معك حق.

وعدنا نسكت. وعاد هو يقول:

- صعب أن يعيش الرجل فى شقة ملك زوجته أليس كذلك؟

تحيرت كيف أرد عليه.

- أنا أعيش معها فى شقة جميلة جدًا.!

ظللت صامتًا. ورأيته يمد يده دون استئذان هذه المرة ليتناول صحيفة الأخبار. لاحظت أن أصابعه ترتعش وأن عرقًا يغطيها حتى يكاد يتبلل فى نقط لامعة. وأشار إلى العناوين الرئيسية للجريدة، وقال: وهو يكاد يبكى:

- شُفت... ؟

قلت:

- شُفت.

مشاهد صغيرة حول سور كبير..!

لقطة :

ارتفع الهوا.. الشمس سهام تنفذ خلال الجلد والجدران.. اتسعت السماء.. انفسح الكون.. بدا كما لو كان متوقفًا.. تحدد عالم المرأة المتكفنة بالسواد بموطئ قدميها.. بالسجين البعيد عشرات الأمتار.. تقف فى الفضاء الترابى على يسار الشارع لا يسمعها أحد ولا تسمع أحدًا.. كان يظهر كاملاً فى الدور العلوى للمبنى الأوسط. أمامه نافذة حديدية الأسياخ.. النافذة تتوسط الطرقة التى تمر أمام الغرفة المظلمة.. يداه تتشبثان فى الأسياخ.. صوته أسطورى لا يعترف بالفراغ. صوت المرأة مريض لكن يبدو أنه يفهمه تمامًا.. حيويته وطاقاته كلها تتركز فى محاولة السمع والتقاط الموجات الضعيفة من فم المرأة المتهالكة.

الحرس :

السور حجرى سميك فوقه سياج من السلك الشائك. بين السور والطوار شارع؛ الجنود يسيرون عبر الشارع برتابة.. على كتف الجندى سلاح ثقيل. الجندى لا يشعر به.. الشمس لا تلسعه.. قد تبرق فكرة، ذكرى، تخفيها العادة. تنتهى نوبة الحراسة عندما يرى زميله مقبلاً عليه.. أحيانًا يغفل عن رؤيته.. يأتيه صوت سجين مطل من النافذة الضيقة: «حضرة الصول.. الوردية وصلت؟»

مشهد:

جاءها صوته رقيقًا وهى تقف تحت الشمس..

- كيف حالك يا ليلى؟

قالت متكلفة الفرح:

- كيف حالك يا على؟..متى ؟

لم يرد فرفعت صوتها قائلة:

- سمعنا أن هناك عفوًا قريبًا..

بدا كما لو كان يفكر فى شىء.. أمسكت، وجمت للشمس.. للجو الخانق.. شردت.. لم تعد ترى أو تسمع.. جاءها صوت السجين:

- ليس لى فى العفو.. الصبر طيب. لكن.. لم صرخت؟

كوتها الشمس.. ابتلعها الخلاء الرهيب.. سبحت نظراته على وجهها.. سمعت حوارًا يدور جوارها طائرًا بين السماء والأرض.

ـ لماذا لا يخرج.. لماذا يحرم نفسه من متع الدنيا؟

ـ يقول أنه خائف.. إنه يغلق الحجرة طوال اليوم أجل..

عندما ننظر من خلال ثقب الباب نجده قد انزوى فى ركن بين الحائط والدولاب..

ـ وما العمل؟

لم ينفع المنجم ولا الزار. لابد من الخانكة.

ـ ليلى؟!

قالت تخفى المفاجأة هادئة:

ـ نعم.

وانطفأ ألق عينيها.. اتسعت عيناه. زم شفتيه.. مشدوه إذ ينظر إليها.. طامنت رأسها. ثبتت عينيها على طرفى حذائها.. رفيعين مدببين.. ثقيل خطو هذه القدم.. فى الأرض أثقال يا حبيبى.. الأيدى تمتد مرتجفة عرقانة. سوداء معروقة.. الأيام يوم.. الأحداث حدث واحد.. طويل ممل ثقيل بلا معنى. وزحام عنكبوتى يفرغ القلب ويجوف النفس، ولا شىء ينم عن شىء. لا أفهم أن تسجن، أن أسجن، وأن تبكى يوم سجنك أو أبكى لو أخذونى.. يحددون خطواتى بالأوامر والتعليمات. ليكن. وعندما أشعر بوطأة الحبس وأرى الجدران الضخمة العالية والملابس الخضراء المرتقة المهترئة والأقدام الحافية، والعقول الغافية، والحرس المنتفخى الأوداج حمر الوجوه أصحاب الكروش تتحسر عنها الأحزمة

العريضة. وذا القميص الأحمر الذاهل ينتظر الحبل الذى رأيته فى زيارتى السابقة. وعندما أعرف أن الزيارات أصبحت محددة، والاتصال بموجب طلبات متباعدة ووسائط كثيرة، عند ذلك كله سأقول أنى فى سجن وتطيب نفسى ولا أحزن..

مشهد آخر:

يقف فى نفس شرفة العمارة فى انتظار صديقه الذى ذهب أحد المسجونين فى طلبه.. لا يهتم بأن يسمع شيئًا مما يجرى أسفل. يذكر فقط جلال المرة الأولى وسريان ما يشبه النمل خلال خلاياه.. كانت الأصوات من حوله صاخبة تتراشق بين المرتفعين والمنخفضين. ولم يصدق أنه يمكن لكل أذن التقاط ما يخصها. لكنه ما كاد يسمع صوت صديقه حتى تميزت الكلمات بوضوح. خلفه على الحائط قفص فيه طائر الكناريا.. الطائر ساكن لا يأتى بحركة.. وقف على الخشبة المرتفعة وضم جناحيه ودفن رأسه فى صدره وغفى.. على جدران الشرفة بعض أصص لنباتات منزلية.. الأصص حائلة.. سيقان النباتات متهدلة. لا زهور.

كان السؤال الذى وجهه لنفسه هذه المرة «لماذا ينظر بعض المسجونين من خلف حديد النوافذ الضيقة بينما هم لا يحدثون أحدًا ولا يناديهم أحد» لم يكن يصدق أنهم يحبون الحرية..

- حسن.. حمدًا لله على السلامة.

- لا تؤاخذنى إذ تأخرت عليك.

- ولا يهمك.. أخبارك؟ مغامراتك؟

- مغامرات؟ يبدو أنك أصبحت طيبًا «كنت أنت المغامر.. لا شيء يستحق الحياة من أجله فغامر.. لا خسارة فى الموت.. والسعادة فى تحدى ما حولك.. تلك كانت كلماتك اذكرها تمامًا».

حاول اغتصاب ضحكة وقال:

- اقرأ فى التصوف..

- ها ها ها ها !!!! تصوف !؟ ما تشرب حشيش أحسن.

- رفع حارس رأسه إلى أعلى سمع حسن سجينًا يقول:

- يا ليلى.. أنا فى انتظارك.

قال صديقه:

- أى والله العظيم.. ها ها هاى..

أدار الحارس وجهه ناحية حسن فوجده منصرفًا إلى السجين.. لبث برهة يفكر. سمع صوت حسن السجين الأول:

- إذن مما تخافين.. قولى ما يخيفك؟

تحركت قدم الحارس آليًا.. قال حسن كأنما يبحث لنفسه عن عذر

- والدراسة بدأت والوقت ضاق.

- دراسة؟ ها ها هاى

- ماذا أفعل؟

- تفعل؟ ها ها ها هاى

«ماذا يفعلون بهم؟»

- فكرت مرة أن أعرض على العميد فكرة بناء سور شائك فوق سور الكلية وتحديد موعد الشهادات مع الإفراج.

- يا راجل حرام عليك.. قل لى - وصمت برهة - سامية؟

إنداح السؤال فى حلق حسن وتلوى فى أمعائه.. أطرق قليلاً.. سمع سجينًا.

- إذن مالك منكمشة هكذا.. تحبين أن أستصدر لك عفوًا؟

- تزوجت ليبيا

- ....

- ....

- اسمعنى - طنش. يجب أن يطنش الإنسان كثيرًا - ها ها ها هاى.

«لماذا يضحك كثيرًا كل مرة، وعاد السجين يسأل

- اسمع.. أنت تعرف أحدًا عندك

تحول مباغت أدهش حسن.. قال:

- إذا أردت شيئًا قل يا عباس..

- كلام سليم.

سادت فترة صمت غاب كلاهما عما حوله فيها. قطع السجين الصمت:

- اسمع.. الجو خطر عندك

كأنما السؤال صفعة على وجه نائم.. ذعر من طريقته فى تحويل الموضوعات:

- ماذا تقصد؟

- لا شىء، لا شىء.. لكن، أنت مثلاً.. مالك؟

- لا شىء - وتردد قليلاً ثم استطرد - فى الحقيقة كأنما يد تقبض على قفاى وترفعنى معلقًا فى الهواء ثم وجم آسفًا على إفلات هذا الكلام منه -

- تكون مراقب؟ ها ها ها ها هاى.

- أنت فايق ورايق

- أبدًا، أبدًا.. أنت قلت لى فيه من يعرفك فى العمارة.

- ....

- رد.

- وقلت لك ناد فقط. قل يا عباس..

آه ولكن صدقنى - ثم ضاحكًا - لا داعى - وصمت لحظة - أنت متأكد أنه فى هذه العمارات سكان.

- طبعًا هل ترى شيئًا آخر؟.

- ها ها ها هاى.. لا شىء. لا شىء.. اسمع. أنا فى انتظارك أنت. لن أنادى.. لا تكن مثلهم.. اليد التى على قفاك لازم تقطعها.. سلام؟

ختام:

كانت قد تكومت جالسة فوق حجر.. لم تعد تتكلم.. كان يزداد صراخًا.. ثم جعل يقفز خلف الأسياخ.. يهزها بجنون. يتركها. يرتد إلى سور الطرقة. يهاجم الأسياخ برأسه يريد المروق من بينها.. المرأة لم تعد تسمعه.. أصبح يعوى. يزأر. يبكى. تكاثر المسجونون حوله يشدونه وهو قابض على الحديد. ودبت الحركة فى أرجاء السجن. كانت المرأة ساكنة كميتة. تراه ولا تأتى بحركة، نامة. لم تفكر أن تتحرك أو تترك مكانها. لم تفكر فى أى شىء..

شمس الظهيرة

زينة الشباب :

تطاوعنى قدماى يدفعهما أتون ماء الوجه المراق! لكن يدى ينزل منهما العرق.. من أطراف أصابعهما الجهمة.. من شقوق أظافرهما السوداء.. العرق يروى وجه الملح الظامئ المحترق تحت أشعة الشمس الغادرة.. خشونة الملح اليوم حادة.. كم قطعت هذه الأرض فى وهد الجفاف مستشرفا الجسر قاطعه إلى مشاريع العمل حافيًا كالعادة؟. لكنهما اليوم حادة بثور الملح يا أبى.

كأنما هى حليف زينة البنات!

«يا زينة البنات ما أتعس أيامك»

«إلى أين يا عمران؟»

«إلى المقهى يا زينة البنات»

حجة ليلية تصدقها سذاجة قلبك المتبدية خلف اشراقة وجهك.. لكن القدمين تعودان إلى الباب الذى خرجتا منه، ترقيان السلم الضيق بهدوء مجرم وتحفز نمر، وقفزة فوق السطح المقابل..!

«تعلمت القفز الليل لأن القفز مشاع.. حكايات الشباب والكهول وسط غبار العمل قفزات خائنة. وكنت أعجب كيف يعملون بقوة التماثيل القديمة فى جبالنا رغم فقرهم الدائم.. حقائق وأكاذيب تروى الظمأ نهارًا وتتقع غلة الجهد فى نيل شبق.. وأصبحت أخاف من كل العيون.. وأشك فى كل العيون».

وينفتح باب الغرفة العلوية الوحيدة عن الوجه الأصفر النحيل النهم.

- عمران!؟

يأتينى الصوت مخنوقًا بالرغبة المكتومة. وتذوب عصارة الانتظار المتوثب، ورحلة العودة خطيرة رغم انهزام نصف الليل الأول.. واسمع صوتك المسكين خلف الباب الهزيل.

- الباب يدق يا أبى.. إنه عمران.

- افتحى له.

ويقابلنى وجهك يا زينة البنات صبح مبكر.. وكأنما تصرين على سذاجتك.

- غلبت فى اللعب؟

- الكوتشينة ملعونة.

وتصدقين..

وغابت عنى لعبتك الخبيثة.. نسيت أنك واحدة من النساء..

«يحكون حكايات ترطب نار النهار»

وقفت صورتك عند يوم رحيلنا الأجرب.. عشرة أعوام استدار فيها الجسد والتف. وكأنما اكتسب بياض البحر رغم عروقه السوداء واسمع صوت البراءة..

«أنت لست ابنة صعيدى!»

«أختك حلوة يا عمران ونحن أغراب»

ونساؤنا عجفاوات كالعقارب، شبقات تلدغن. انتقلت حرارة البيوت المغلقة الضيقة كصدرونا إلى أجسادهن هكذا يحكون فوق الجسر فى مشوار الدوار الدائم.. وهكذا أشعر أنا فوق السطح المقابل.. وها هو الجسر الترابى يقترب الآن خلفه ذؤابات نبات الحلفاء الخضراء تخفى مستنقعًا آسنا نتنًا هجرته الأسماك.. ونحن أشباح ثلاثة تموت الظلال تحت أقدامنا.

قدماى تغوصان الآن فى المياه الحمراء، كإنما ضعفت قشرة الملح فاشتد شوق الماء.. مياه المستنقع المستكنة تحت جفاف الملح والغبار، التى كانت عبثًا تحاول النفاذ، تتفجر الآن بطيئة متألمة.. اتسعت الشقوق الضيقة وازدادت المياه الحمراء الطفيفة، وتحدت الأشعة

المطاردة.. قد تكونين كما أنت يوم رحيلنا، قد لا يكون كلامك كذبة طويلة.. ولا سذاجتك لعبة خبيثة.. تكلم يا وجه إلى الجامد.. أمتأمل أنت أم آسف؟ أم لعلك مت منذ زمن؟ خيوط النار تكشف سواد وجهك وعنقك الذى تكلست الأيام فوق عروقه النافرة.. تكلم بحكمة السنين التى استنطقت بها جدود الجرانيت.. تكلم بصوت منفرد فى الوادى المشتعل يحفر أركان الهواء وتسجد له آذان الحائرين.. قل إننى مخدوع ليسمعها الرجال السود أشجارًا صلبة معلقة تحفر الجبل وتذل جبروت الزمان.. قل أنك كاذب واحمل كفنك على مديح الشجاعة تمنحنا الحياة..

«الألسنة تنام عند حجرتنا!»

«نعم!؟»

«حجرتنا تطير بالليل تسكن كل المنازل».

«..........»

«حجرتنا بالنهار يدخلها أغراب»

«..........»

«نحن غير موجودين»

«..........»

«لقد متنا»

«..........»

«هل نعود إلى بطن الجبل؟»

لا. لنرقى لآن بطن الجسر.. لنبطش ببطن الماء الراكد.. لنذل جبروت نبات الحلفاء المتحدى.. لنستجلب صقور الثأر تحلق فوق الماء المهزوم.. أنا عمران يا أبى؟

آه.. لماذا غاضت ساقاى وحدى حتى الركب!؟

●●●

زينة الرجال:

«كان يناديها دائما «يازينة البنات» ونادرًا ما كان يخطئ وينايها كما كان ينادى أمها «يا زينة النساء» لأن ذلك كان يثير لديه ذكرى شجية).

الشمس تابع مقيت وموت معلق.. لكن كم كنت تحب شمس الصعيد وزينة النساء فوق السطح ترتب «الخبز الشمس».

أيتها الشمس لماذا لا تترفقين به الآن؟.. تضعينه فى كل خطوة يخطوها وسط بحار من الدم.. ينكشف له واد من الجيف.. يستقر ما تركه خلفه أمام عينيه فيه رائحة اثم جاثم.

كيف أنك لم تدرك الشمس إلا هذه المرة.. كنت تعمل فى الميناء تحت الرافعة الجبارة والشمس تسكب عليك مصهوراتها، لكنك قط لم تعرها انتباهًا. هى اليوم عين غاضبة تكاد تتكلم فيهتز لصخبها الكون.. آه لو تعمى الخطوات الباقية!!

«قلبى يقفز مرتاعًا.. قلبى لا يطاوعنى يا عمران.

لكن ماذا أفعل؟»

كأنما أفرغت الرؤوس وقطعت الألسن تسيرون كشواهد قبور تتحرك..

«لست أنا الذى..»

عيناها كانتا متعلقتين بك، والضرب ينهال فوقها لعنات وأنت قطعة لحم بلا دم.. كان يجرها على الأرض ممسكًا بشعرها متكومًا فى قبضته الفولاذية.. تجرفها قوته بغباء النيل يجرف القرى عند الفيض..

«يا زينة النساء.. لماذا جرفك التيار؟»

ترتفع يداها أثر وخز الركل واللكم.. وتتعلق اليدان بالهواء.. يدك لم تمتد.. عيناها فقط تخيفانك..

«يداك ترتفعان لهفة.. عيناك ذعر الدنيا.. وبعلك ممسوك بأيدى الجيران.. لا فائدة.. الفيض طام».

«لنرحل يا ولدى عن بطن الجبل.. عيشنا هنا لا يسر»

«الرحلة طويلة يا أبى»

«طويلة يا عمران»

يقترب الجسر الترابى وتكاد تنتهى الرحلة! أليس كذلك؟.. بعد قليل تلقى أثقالك. أو تحمل أثقالك.. قد تتركك الشمس بعدها.. قد تتشبث بذيل جلبابك.. أو تصبح فى أم رأسك.. المهم الآن أنك

ستفرغ من شيء لابد أن تنتهى منه.. تعود بعدها إلى مسكنك.. ربما قرير العين.

«حجرة واحدة يا أبى؟»

كنت خارجها تسمع ارتطام جسدها بالجدران أثر قذفاته بها.. كرة يلعب بها وقلبك يلعب لعبة كريهة بين ضلوعك.

- «تكفينا.. غدًا تتزوج وتتركنى.. وتكبر أختك وتتزوج أيضًا».

كم هى ضيقة الحجرة وخانقة.. غرف البيت فى صفين متوازيين بينها دورة مياه صغيرة سوداء عششت الهوام فى أركانها وسقفها وكان هذا لكم غاية المرام.. بسرعة تقاربتم مع سكان الحجرات المعتمة.. بسرعة أحبت النساء زينة البنات.

«كنت أرى عيون الرجال تتبعك، فأصبحت أشك حتى فى النساء عندما ينادينك يا زينة البنات.. وكانت أوامر الرجال لزوجاتهم أصوات رصاص من سفح الجبل»

«النساء كأنما ضاع منهن الحياء.. كأنما البيت كله حجرة واحدة.. كأنما الحى كله بيت واحد.. مازالت فى قوة يا عمران.. مازالت فى قوة يا زينة النساء.. لماذا تركتنى؟

تعود مكدودًا من العمل.. تنطرح فوق السرير القديم.. تغرق فى ذكرياتك القهرية.

«تدورين حولى كالنحلة.. ها هو الماء يا أبى.. ها هو الأكل.. الشاى.. علبة الدخان.. القبقاب.. تضحكين عندما تتقطع جلدة

القبقاب وتنزلق قدمى على الأرض وأجد نفسى فجأة والقبقاب خلفى. ضحكتك تفرش فدادين من زهور الفول.. ضحكتك بهجة العمال عند رسو سفية محملة بالعمل.. هل يمكن أن نعود يا عمران؟»

قلها بصوت مرتفع.. أحبس دموعك ولا تجعلها تطفر منك وعد.. تخاف أن يجعلك البطن الذى علا تنخفض..

لماذا لا تتزوج يا رجل؟»

«ولماذا؟ تكفينى زينة البنات تسهر على»

«وعمران زينة الشاب تلتهمه عيون النساء عيون القرى والنجوع كانت تلتهم أباك. لكن قلب أبيك كان معلقًا بزينة النساء.. معلقًا بها والنهر يجرفها»

ويقترب الجسر الترابى الآن أكثر.. نبات الحلفاء كأنما يتقوس ليواجهك.. تنغرس أطرافه الحادة فى عينيك.. الشمس والحلفاء حليفا الشيطان.. شريران يعذبانك.. هل تطلق سراح ساقيك؟ .. لو فعلت لطرت إلى الوراء.. الأرض جامدة.. حشف الملح صلب يؤذيك ويدفعك لأن تقطعه لتنته منه الجسر غايتك والحلفا تقهرك والشمس تذلك وحركتك سريعة ومغلولة معًا.. كيف يحدث ذلك.. لماذا تهرب شجاعتك فى الوقت الذى تسرع فيه إلى الجسر؟ هربت شجاعتك فى الليل.. فى كل الليالى السابقة.. عمران يخرج إلى المقهى كما يقول، وأنت تحملق فى السقف الواطئ.. ترى عليه رسوما لا تراها بالنهار.. نهر يتدفق.. شاب يلهو مع زينة النساء..

شاب فى بيتك.. زينة البنات على فراشها فوق الأرض يبتعد الغطاء عنها.. تلفظه ساقاها حرارة.. ينحسر ثوبها الخشن عن بياض لحمها الناعم..

«هذه ليست ابنة صعيدى أبدًا».

«اسكت يا ابن المركوب».

تعطيها ظهرك.. تتحرك صورة زينة النساء من أسفل السقف.. تستقر أمامك فوق الجدار.. تستدير فى لعبة المطاردة المقيتة.. ساقا زينة البنات عصير قصب وأقماع سكر.. تهبط.. ترخى ثوبها.. ترفع فوقها الغطاء.. تحاول أن تنام.. الحرارة فى الحجرة القاتمة الضيقة نيران مسعورة.. لعبة زينة البنات مع الحرارة دائبة.. لعبة زينة النساء مع النهر فجيعة.. لعبتك مع الزمن طويلة.. حرارة الإسكندرية كيف فاقت حرارة الصعيد؟.. فرن فى داخلك يغلى كما بركان أرعن.. البيت كله حجرة واحدة.. الحى كله بيت واحد! كم انكشفت لك أفخاذ النساء فى خروجك ودخولك؟. لماذا يحلو لهن الغسيل وسط الدار جماعة.. تتكفئ الواحدة فوق «الطشت» الصدئ.. تقرفص حوله منحسرة ثيابها التى فتقها اللحم أو الفقر عن أفخاذ لا مبالية.. فى بعضها تشيع عروق خضراء وبعضها بها بقية تقاوم الزمن.. لكنها كلها تدعو.

«لماذا لا تتزوج وأنت رجل تكسب وفيك قوة؟»

«تكفينى زينة البنات!!»

....

«اقتلنى يا عمران»

هل تسطيع أن ترفع صوتك مثلها؟.. كان صوتها يأتيك وأنت خارج الحجرة.. وأنت فى العمل.. وأنت فى الطريق.. دعوة للقتل ولكنها لا تفشى السر.. فليقتلها عمران ليريحك.. لا، ليريحها.. ليريح نفسه.. ربما لنرتاح جميعا.. لا، ليرتاح المنزل.. لترتاح الرسوم أسفل السقف.. لترتاح الحرارة.. ليرتاح النهر.. ليرتاح الغطاء الذى تلفظه الساقان.. ليرتاح الحى.. لترتاح الأسكندرية.. لترتاح البلد والدنيا كلها.. ليرتاح كل ما تراه وتسمعه وتلمسه وتذوقه وتشمه.. آه.. هل حقًا ستحدث هذه الراحة؟..

ومن هو أس البلاء؟.

«اقتلنى يا عمران»

الصوت يرتد فى حلقك إلى أطراف أصابع قدميك.. إلى الملح تحتك... إلى الماء الأحمر تحت الملح..

«لماذا لاتتكلمين يا زينة..»

الجسر تحتك الآن.. إنك لتراه هامدًا.. لقد برز المستنقع ونبات الحلفاء الأشم يوحى بتخاذلك!.. لماذا تميل الشمس إلى الماء الراكد؟.. إنها تبدو كما لو كنت غادرت السماء واقعت وسط الماء.. إن أشعتها تأتيك من جوف الماء.. ولكن حممها مازالت تصب فوق رأسك.. أين هى إذن؟ انظر إلى أعلى.. إنها فوقك...

انظر إلى الماء.. إنها تؤذيك من وسطه..

إنها تحاصرك..

لتدفن الشمس.

لتغرقها فى الطين العفن..

لتقض على أشواكها الملتهبة..

زينة البنات

هل هى النهاية؟ وإذا كان ذلك فكيف أنى أسير غير خائفة؟ كيف أنى لا أشعر بما حولى؟ الشمس فقط فوق رأسى حانية على.. دقائق وينتهى كل شىء. ولتشهدى أيتها الشمس الدامعة أنه فى هذا اليوم المعذب بالصمت انتهت حكاية كانت نهايتها قد بدأت منذ زمن.. لقد كان يحدثنى عن أمى كثيرًا ويقول لى..

«إنك مثلها.. بل أحسن.. الناس فى البيوت يحسدوننى عليك..»

وكان يحبنى.. أما زال يحبنى؟ لو كان كذلك ما فعل.

وربما هو الحب..

إنى لا أكرهه.. بل يتسلل إلى شعور بأنه مسكين.. وكثيرًا ما تأخذنى الشفقة به.. كرهته فقط لحظات خاطفة. عندما انطبق السقف فوق جسدى. ساعة تقادمت الجدران تعتصرنى بينها خرقة مبللة.. وعرفت العيون البائسة.. حزينة حروفها غائرة.. وتردد السؤال، المكتوم بفعل الذنب المصلوب..

لكنك إنسان يا زينة الرجال.. وزينة الشباب طفل صغير.. وأنت رغم الانهيار قائم كأرجل الرجال.

«كانت أمك تقول لى أنت رجل القرية.. ثم كان النيل وشعرت أنى لست رجلا.. بل أقل من عيل..».

حقًا خانتك شجاعتك أن تعترف ولكن لو اعترفت لكرهتك.. ولصرخت فى وجهك أنكر قولك المشين ولا عليك الآن.. لابد أنك تفكر فى التراجع.. لا تتراجع ودع زينة الشباب ينهى الخدعة..

آه هانحن فوق الجسر الترابى الآن.. الشمس فوقى كئيبة كسيرة الأشعة تدفعنى للبكاء.. ترنو إلى فى ذعر كإنما حزن سماوى.. وكأنى أرى عين الله.

بشارة الرحلة السعيدة.. وفى غفلة من الشمس والملائكة امتدت يد ضخمة. طويلة الأصابع غليظة الأظافر سوداء كسفت نور النهار.. قوية ثقيلة لا يمكن أن تكون لبشر.. أحاطت بعنقى.. ثم استدار ماردها وطوق قفاى.. اليد حارة والأصابع ساخنة موتورة بحقد أو خوف قديم.. «وكانت الليلة ملتهبة يا حظى المنكود وأنا ميته فى عمق النوم الساذج»

وضغطت اليد على العنق.. وزينة الرجال بعيد خلفى. أريد أن أراه فقط.. أخطف نظرة مودعة.

«وجثة ثقيلة تضغط على جسدى فى رقدتى البلهاء مما جعلنى أفزع.. ولكن الكف فوق الفم الصغير كانت قوية.. والصوت يأتينى من وراء السنين.. يا زينة النساء لا تخافى.. يا زينة النساء لا تخافى.. وتحشرج سريع مشحون بتوتر وعرق يتمرد ويثور تحت الكف وفوق فمى وبشرتى المرتعبة».

واحسست بأن حلقى يجف.. وأن شيئًا مكورًا يضغط على ظهرى ويدفعنى إلى الماء.. طاوعته بهدوء حتى بدأ قاع الماء الطينى المائع يشدنى.. أردت أن أنظر خلفى لكن الجدارين الغليظين حول العنق منعانى.. عيناك يا زينة الشباب أريد أن أراهما الآن.. هل فيهما رغبة الانتقام أم إنكسار الذل أم بلادة؟ عينا زينة الرجال لا شك مغمضتان.. وغاصت ساقاى فوق الركب..

«وكنت ساقاى قد استسلمنا فى ذهول تتشدان جدارى الحجرة.. يا زينة النساء أنا مازلت رجلاً.. أنا زينة الرجال!.. يا زينة النساء.. ويختلط الصوت بالبكاء.. واليدان تمرحان فوق خيال المآته جسدى».

وسمعت صوت زينة الشباب.

- إنك لا تبكين يا قبيحة البنات.. جزاؤك..

عنيف فى دفعك لى كما كنت عنيفًا فى ضربك.. لكنك طفل فى نظرى آه.. إلى الماء يهبط قلبى.. الماء نتن وقلبى ينتفض خوفًا من ظلامه.. لكن الشمس تهبط إلى

«وكان السقف ثقيلاً فوق جسدى وصدرى..

وارتفعت ذراعاى استغاثة ميتة.. كتفتهما الكفان الغليظتان.. انحبس صوتى بلا ضغط عليه.. يا زينة النساء. وقرت الموجة فهو هامد بعد معركة خاسرة».

ويشدنى طين المستقع.. الكفان قويتان، وأشعة الشمس حبال واهنة.. أتعلق بهما بعينى لكنها لا تقوى على الصعود بى.. لا شك

استدار أبى كى لا يرى زينة النساء يغطيها الماء مرة أخرى.. يجرفها تيار واقف!!

«قلت له بعد أن همد.. ماذا فعلت؟»

لكن الماء وصل إلى شفتى فأجج الرائحة العفنة.. وشربت بعض طينه المذاب فتمرد جسدى وطفر إلى أعلى ليسقط من جديد ويقرقع الماء الكثيف حولى.. وانطلق لسانى للمرة الأولى والأخيرة «ماذا تفعل يا زينة الشباب».. ولم يكن هناك وقت لافجر رغبتى الأخيرة فى البكاء رغم أنى لم أكن أشعر أنى أموت.. ورأسى الآن تحت الماء والأشعة المسكينة كأنما هبطت معى!!

عن الرجل الذى كان يهوى قهر العربات

الحرب مع الهواء :

- المنزلق خطير.. اسمك على أليس كذلك؟

- ....

- خمسة ماتوا قبلك..

- ....

- الموت كله قابع بعد التحويلة الرابعة...

هاقد مضى عام راعد انبثقت فيه الشمس كل يوم عشرات المرات.. أصبحت الكلمات مضحكة.. يومها ملأ الأسف والإشفاق والاستخفاف عيون العمال والملاحظين والمهندسين! «عندما ترى صف العربات وهو هابط، تشعر أنه يريدك.. حتى عندما تخلى

الطريق وتنحى جانبًا يسيطر عليك إحساس عارم بأنها تنحرف إليك... ومهما حاولت الهرب، فهناك قوة جذب جبارة تشدك إليه.. وفى أكثر الأحيان تقدم أنت بنفسك على صف العربات... تقتلك الرغبة فى الموت عصفًا.. كل الذين ماتوا قبلك قالوا أنهم يسمعون نداء الموت الجميل فى عجيج العجلات. وهم يعيدون تنظيم العربات. وابتسم فى هزء واضح بينما ظل زميله فى حيرته القديمة من الصمت الذى يكبله عندما يود أن يتحاور معه.. ولكنه وجد القدرة على الكلام فقال:

- أخيرًا صدر الأمر بالغاء هذا السيمافور تمامًا..

- ....

- تعبت المصلحة من إعادة تركيبه

....

- أرادت أن تضع حدًا لرعب الناس من روح متولى التى عادت بعد عشر سنين.

- ....

- كيف تستطيع الروح أن تخلع السيمافور عشرين مرة فى عام واحد!؟

كانت عينا «على» تطوفان حول العربات الواقفة فى إستكانة ذليلةعلى طرق مختلفة، من يراها الآن لا يصدق أنها كانت تهبط عليه كجرف أرعن وعليه وحده أن يضع «اللجام» فى طريق العربة

الهابطة والمنفصلة عن قطارها إلى طريقها الذى حدده الموزع... للعجلة الأولى يضع لجامًا تجرفه العربة وتكاد تطحنه، مندفعة بالقوة الجديدة التى يمدها بها انحدار الأرض.. عليه فى التو أن يضع اللجام الثانى تحت العجلة الخلفية بدقة ومهارة فائقتين.. ينحنى جوار القضيب.. يمد ذراعه بسرعة.. يترك اللجام فوقه بخفة.. حذار أن ينحنى أكثر.. يضرب جانب العربة رأسه.. وتمامًا كما حدث لمن قبله.. سينقلب على ظهره.. يقفز الدم من رأسه أو جبهته.. يغطى وجهه. صدره.. الأرض السوداء من حوله.. يسمعون صوت ارتطام العربات الهابطة أذ تتصادم بعضها ببعض يتجمدون.. ما أبشع رؤية جثة.. آه.. وجثة وحيدة! قد لا يسمعون.. عبثًا يكشف القمر ضوء الدم.. «لطالما يرتعد جسمى عندما تدور دراما الموت هذه فى مخى تطحن خلاياه».. سعادته تزداد واصمة العالم بالبلادة.. مقيتة كانت عبارات التحذير كذبة كبيرة.. سار يومها يقفز بين القضبان الحديدية.. فوق العوارض الخشبية التى لطخها المازوت.. خفيفًا كان يطير فى الهواء ويضحك.. تدور النشوة بجسده منسكبة فى روحه بشهد العالم.. ويجرى رافعًا ذراعيه إلى السماء. ستبرق الدنيا غدًا وترعد فى وهدة الصيف. ستخرج الأشباح الرائعة تعطى الحياة لحنًا مقدسًا. وأكل السحب البيضاء بعينه.. اتسع به المكان.. لم تعد القضبان خيوطًا عنكبوتيه.. اتسعت خطوطها وراحت تصنع بامتدادها وتقاطعاتها تشكيلاً هندسيًا.. صارت بلونها البنى القاتم، واسترخائها فوق العوارض والحصا المغطى بالقار، تصنع مع السحب البيضاء عالمًا

خاصًا به وحده، ليس به غير لونين هما أصل الألوان.. شعر بينهما أن الدنيا خلت إلا منه.. وليس ثمة بعد ذلك إلا أشجار مفرقة عبر مربع المنطقة الواسع، بدت بعشوائية تفرقها وكثافة أوراقها بدائية متوحشة. إقسم يومها أن تلك اللحظة هى بداية العالم أو يجعلنها كذلك.. وأنه الأول والآخر.. والفعل والمبتدأ.. يستطيع الآن أن يقلب الأرض ويقول لكل شىء كن فيكون.. وبصق فى ،وجه أول سيمافور قابله أصبح مكانه خاليًا الآن.. أحس أن زميله بقعة شوهاء فى الكون المضىء فى هذا العصر لهذا اليوم من أيام صيفه الثانى وظهرت من بعيد عساكر الشرطة مقبلة من كل ناحية وتنتشر بنظام حول القضبان. قال لزميله بهدوء..

- هل حاربت من قبل..؟

صفعته الحيرة الأزلية! قال وقد شعر أنه يمكن أن يتكلم:

- اشتركت فى حرب ١٩٥٦.. لكن تعتقد من الذى حطم السيمافور ومن الذى يخطط القضبان؟

وأسف الزميل على هذه الانعطافة المفاجئة فى كلامه، تعجب من نفسه إذ يتحول بالحدديث وهكذا.. ولعن الخوف الذى سكن قلبه.. كاد يعتذر.. لكن على باغته قائلا:

- أقصد هل حاربت الهواء العفن؟

حسبها الزميل إهانة.. تكورت يده وانبسطت قبل أن تتم تكورها سقطت أطراف أصابعه على الأرض عرقا .. نظر على إليه بإشفاق

قديم .. كان فى البداية يتطلع إليه فى نشوة فياضة وهو يراه من بعيد واقفًا بجوار القضبان ممسكًا بعصاه ذات الخطاف المعدنى وهو يضعها بين عربات القطار (بحيث تكون فوق أحد المتصادمين، ويكون طرفها أسفل السلسلة المعدنية الثقيلة التى تربط كل عربتين معًا).. وهو يضغط على الطرف الذى فى يده إلى أسفل ليرتفع الخطاف إلى أعلى فاصلاً السلسلة والعربة معًا.. عندما سأله يومًا كيف تقوم بذلك؟ قال.

- إن فى الأمر حيلة، لأنك تجعل من العصا والمتصادم ما يشبه الرافعة.. وفى الأمر قوة أيضًا..

خاب ظنه.. أدرك من يومها أنه وقع مع أحمق.. يقول فى الأمر حيلة وقوة!

وسحق العبارة بكعب حذائه.. وقفة وعصا وعربة وسرعة وقوة واحدة.. لحظة واحدة ويقول حيلة وقوة.. ما عساه يقول عنه إذن؟ وما اللجام إلا قطعة من الحديد، أسفلها تجويف بطولها وبعرض القضيب بحيث إذا وضعه فوقه أطبق عليه.. وأعلى قطعة الحديد قطعة أخرى ذات انحدار أملس إذا واجه العجلة. فلا تستطيع الدوران لذلك تجرف اللجام أمامها وبقوة لمسافات طويلة.. يضع لجامًا آخر خلال دفعها للأول مخاطرًا بنفسه ليقهرها.. يجرى منحنيًا جوار العربة بنفس قوة سرعتها.. يختار اللحظة المناسبة.. لحظة يشعر فيها أنه يختار بين الموت والحياة.. «إنه يقهر العربات ليعيش» هكذا يعلن لنفسه.. لكنه يموت فى اليوم ألف مرة.

فلنعوض هذا الموت بالإنتشاء الفائق.، قالوا بعد كل تحقيق فى موت أحد السائقين «العقل فى رأسه واللجام بين يديه، والمنزلق قانونى» ماتوا مخطئين!

وانبثقت على البعد جماعات من عمال الدريسة قادمة ناحيتها يحمل أفرادها مقاطفهم وأدواتهم.. رقص العالم فى عينى علىّ.. الشرطة وعمال الدريسة.. الأرض ليست بليدة.. قال الزميل متعللا بالإشفاق يغلف كلماته.

- لقد داخوا وراء خطوط الطباشير!

كان إحساس على بأنه الوحيد فى العالم، مايزال يلفه منذ عام، لكن ظهور العمال والشرطة من كل ناحية وإقبالهم نحوهما، جعله يشعر كما لو أن حصاراً يستهدفه.. ابتسم من فكرة أنه يمكن أن يحاصر.. لقد مضى عام واحد! هل هى سنون طويلة. طواها هذا العام فى داخله ليظهر كل هؤلاء.. ثم متى ينتهى من هذا اللجوج الذى لم يعد يطيق معه صبراً!

قال زميله هاتفاً..

- هل عاد الشيطان؟

وكان يوجه سؤاله لأول جماعة من العمال تصل إليهما.. قال رجل يبدو أنه الملاحظ.

- عاد بعد أن خدعنا نصف عام..

وقال العمال فى صوت واحد مثل كورس قديم:

ـ اللعنة على المنطقة..

ثم قال أحدهم:

ـ انتهينا من متولى فظهر لنا عبدالله.. لم نجد علامة صحيحة فى عشرين سكة..

قال الزميل:

ـ اذن لا تخرجوا وراء البلاغات.

قال الملاحظ:

ـ قد يكون أحدها صحيحًا وتقع كارثة..

ابتسم على. رقصت فى عينيه الأشجار.. وقال.

ـ الشرطة على كل حال عادت تقف فوق القضبان..

وتجاوزا العمال.. بعد أن غادرا المنطقة كلها انفصل زميله عنه.. لكنه بعد أن خطا خطوتين عاد يقول..

ـ هل تعرف أن المهندس طلب ترقيتك ورفضت الإدارة. قالوا لقد مضى عام دون موت ولا نريد أن يموت آخرون..

قال على بهدوء:

ـ يجب أن نشكرهم لأنهم يحبون الحياة..

نظر الزميل إلى عينى على برهة.. ارتعد والتفت يجرى فى ذعر.. تابعه على مندهشًا حتى اختفى.. كانت الشمس قد غابت..

عاد على إلى المنطقة من جديد.. تحت أول سيمفاور قابله أقعى يستخرج من تحت التراب صندوق طباشير صغير.. فلتكن هذه ليلة عظيمة.. فلتتم الشرطة وهى واقفة كأشجار الملح.. ولتهو العاصفة بكل السيمافورات ولتتزع كل القضبان تتشابك فى الهواء قعقعات احتجاج، ولتته الخدعة الطويلة ويكتشف البلداء معنى العذاب..

-٢-

على هامش سيرته:

المنزلق خطير.. اسمك مصطفى أليس كذلك؟

- ....

- ستة ماتوا قبلك..!

- الموت كله بعد التحويلة الرابعة.. بل فى كل المنطقة.

خلال ساعة واحدة من حضوره، كانت عيون العمال والملاحظين والمهندسين تحاصره سخرية ودهشة، ومرارة فى بعض الأحيان. «المسألة لم تعد مسألة عربات.. كان الذى سبقك جنيا من الجن.. أرهق سائقى القطارات وموزعى العربات بسرعته.. المنطقة ملأتها الشياطين.. هذا ما عندنا وما ستراه بنفسك».

هل هذا ما سيقوله له هذا الرجل الذى خرج إليه من بين العربات.. كان يود لو غادر المنطقة دون أن يعترضه أحد.. طافت عيناه بالمكان الواسع فوجده يكاد يبتلعه.. تطلع إلى السماء فوجدها بعيدة أخفتها السحب السوداء.. خفض رأسه فوجد الأرض زفتًا..

تعثرت قدماه وكاد ينزلق فوق العوارض والمازوت.. مايزال كلامهم فى رأسه مطارق حجرية ثقيلة.. وها هو يرى الأشجار متعثرة فى نشاز مغبرة الأوراق بفعل الأتربة.. شاهد من بعيد طابورً من عمال الدريسة فبدا له كطوابير السخرة التى قرأ عنها فى المدرسة.. الذى أدهشه أنه لا يعرف. لم يعد يعرف، من أين يخرجون وإلى أين يذهبون.. اجتاحه حزن غامر.. بدأت أصابعه تلتف حول بعضها صغير جدًا هو ضئيل ترهقه الوحدة وقفر المكان.. جعل يتلفت بحثًا عن والديه: شعر أنه ألقى به من السماء لتوه، دون سابق خطيئة أو إنذار.. أدرك خيوط المؤامرة.. اختفى طابور السخرة.. صار حضور الرجل كابيًا على عينيه.. مد الرجل إليه يده يصافحه.. سأله..

- خائف؟

لم يرد.. وجلس الرجل فوجد نفسه يجلس معه فوق أحد القضبان.. لم يعد يرى إلا صف عربات، أمامه يسد عليه المكان، قال الرجل مباغتًا:

- المسألة فى يدك..

- تقصد أن أطلب نقلى..

وشخص بعينه إلى العربة المواجهة «تعاد فى أغسطس عام ١٩٨٠» قال فى نفسه بعد أن قرأ التنويه «كل شىء هنا له زمن يعاد النظر إليه بعده ويتجدد.. أما نحن» وتذكر ما قاله المهندس «ستة ماتوا قبلك» فقال للرجل مباغتًا هو أيضًا:

- هل هناك حياة بعد الموت؟

قال الرجل الذى أحس كما لو كان انزلق فوق ظهره واصطدم رأسه بقضيب..

- لا تطلب نقلك.. فقط خذ حذرك.. كان سلفك متحذلقا فمات.. لم يفهم قانون العربات.. كان يسخر منها.. يقول أنه المتحكم فى مصائرها.. إنه يلتذ بها وهى تمثل بين يديه كالنعاج، وأنه لذلك لن يتزوج.. لم يمر يومًا من خلف عربة ليضع اللجام الثالث على الناحية الأخرى... كان يمر دائمًا من أسفل العربة وهى مندفعة كان وصدقنى، مزايدًا.. يقول باستمرار، لقد أخطأ الناس فى حق متولى وعبدالله، وأنهما سيعودان وينتقمان..

وحينما ساد الفزع بعد خلع السيمافور أكثر من مرة.. وشيوع العلامات فوق القضبان، قال شامتًا «ألم أقل لك؟» وكان يضحك حتى السكر حين يرى حيرة وشقاء العمال خلف العلامات الزائفة.. تصور،.. كان يقول، هكذا - ويقصد الفوضى التى انتشرت - يفكرون.،. وكم كان يتباهى بأنه فى كل لحظة يضع نفسه فى مواجهة الموت ويقول أنه يهرب من الموت بمسافة جزء على ألف جزء من الثانية. كان باختصار ملحدًا.. كم قال لى وهو يربت على كتفى ساخرًا، إنه رب الأرض، وكم ضحك فى وجه السماء. كانت لعنته أقوى من لعنة متولى وعبد الله والتحويلة الرابعة.. صحيح أنه لم يمت بعد التحويلة الرابعة، لكنه أيقظ لعنة الرجلين بحضوره.. كان يأمرنى أن أفصل له أكثر من عربة فى وقت واحد من القطار

وعلى أكثر من سكة، ويجرى تحتها جميعًا يلجمها.. ويقول أنه قادر أن يجعلها كلها تصل لبقية الصفوف فى وقت واحد!.. وسمى ذلك «استسلام جماعى».. كان يقتعل حبه لى، ويقول عنى أننى خواف. ويقول أيضًا «لقد تعودتم على الخوف حتى صار يخافكم، أما أنا فأجد نفسى فى المغامرة». وكان لكلامه سحر خداع.. حتى تاريخه الذى حاول به أن يثبت لى أنه - كما ادعى - يحمل رأسه على كفه، كان تاريخًا دنسًا.. لقد كان يعمل فى جوف الصحراء.. فى العلمين.. وكم أرهقنى بالحديث عن الحكايات الباقية من الحرب الثانية.. كيف كان يحلو له الجلوس مع عجوز كان يعمل على المزلقان خلال الحرب.. ويدعى الشفقة على الرجل وهو يقول عنه أنه كان يلقب نفسه «بمنظم حركة الحلفاء» كان فى نظرى يهزأ بالرجل.. والأكثر أنه كان دائم الكذب، وصدقته كسبًا للوقت فقط.. خاصة عندما قال أن حكايات هذه المنطقة وصلت هناك.،. حكايات متولى وعبدالله والتحويلة الرابعة.. لقد اعترف دون أن يدرى أن الرجل الطيب اعتبره فاسدًا لتسلله كل مساء إلى خيام البدو كى يعاشر بناتهم ونساءهم. ورغم اعترافه هذا يقول أنه لم يعتبر نفسه مخطئًا فى هذا العبث الجنسى لأنه كان به يتجدد، تصور، يتجدد، وهذا نص كلامه.. ولاحظ أننى أتحدث أيضًا بنص كلامه.. هل عرفت أنت إنسانًا قديمًا!؟ وهكذا كان يعتبرنى مثالاً للغباء يستحق الشفقة.. أليس غباء يا أخى أن يخاطر الإنسان بنفسه على هذا النحو من أجل متعة زائلة؟ وتوقف الرجل برهة.. وعلت وجهه دكنة حزن مفاجئ جاهد ان يطردها.. بينما كان ما سمعه مصطفى فى

الصبـاح يتسـرب من ذاكرته.. وتلاشى إحسـاسه بالمنطقة تمامًا..
أصبح هو والرجل فقط وسقط العالم من وعيه..

تاقت روحه أكثر أن يسمع. «شبع من لبن الماعز والثريد تهربهما له النسـاء.. شبع من النسـاء أنفسهن. هكذا كان يتفـاخر بتـاريخ دنس.. وغادر المنطقة إلى مرسى مطروح.. ويا أخى لم يكن يعجبه شىء. يقـول لك كـأنه أحـد مـتكلمى هذه الأيام السـود، أنه وجـد المدينة منقسـمة إلى عالمين - هل هناك غير عالم واحد خلقه الله؟ - عالم الأثرياء وهم لصوص الطريق إلى ليبيا ومعهم بعض القيادات الأساسية فى المدينة، لاحظ أنه لم يكن يحمل غير الإعدادية مثلى تماماً - وأن أولئك القادة يقاسمون اللصوص ليالى السكر والعربدة ويقـيمون لهم شبكة من الرقيق الأبيض. ثم عـالم التعسـاء من الموظفين والمدرسين المغتربين والعاطلين وعمال الخدمات والسكة الحديد.. وأنه وجد عـالم اللصوص والقيـادات ناريًا يعيش مجنونًا وراء المال والنشـوة فدخله.. أمضى به شهرًا انتفـخت فيه جيوبه بالأوراق الحمراء لكنه نفرَ منه. تعرف ما السـبب؟ يقـول لك أنهم كانوا يقـولون له تفعل كذا وتفعل كذا. وأحس أنه رغم عنف المغامرة لا يفعل شيئًا لأنهم يقولون له تفعل كذا وتفعل كذا..

ومـاذا فى ذلك يا أخى؟ ألا يعمل عندهم؟ هل ترانى غبيًا إلى حد أن يكون لهذا الكلام معنى آخر..؟

وجاهد الرجل أن يحبس دموعه التى اندفعت مرة واحدة فملأت وجهه.. توقدت البهجة فى روح مصطفى تكاد تطيره إلى السماء. بدأت صورة الرجل تتلاشى من جواره وركز جهده أن يمسك بصوته

فقط.. واستمر الرجل ودموعه تسح.. «كان كما ترى وصوليا يريد أن يتزعمهم ويقول لهم افعلوا كذا وافعلوا كذا.. ولم يكتف بكل هذا الزيف بل قال لى أن حكايات هذه المنطقة كانت تتداول فى المدينة بين عمال السكة الحديد.. يلو كونها وهم منطرحون جوار القضبان فى الأصيل أو يخيفون بها الأطفال فى سكن المصلحة القائم وسط الصحراء.. ولذلك جاء إلى هنا ليعرف! ويتحقق مما كتبه فى مذكراته.. كان لديه مذكرات!. واختنق صوت الرجل.. وقال مصطفى بهدوء استخدم فيه كل قوته للتحكم فى أعصابه كى لا يقوم راقصًا..

ـ كيف مات؟

لم يستطع الرجل الكلام.. نسى بالفعل كيف مات زميله السابق.. نهض مصطفى مندفعًا بكل قوته ومنحنيًا أسفل العربة مغادرًا المكان.. لذهول الرجل تابعه بعينيه من فرجة بين عربتين فوجده يجرى مندفعًا تحت عربات قطار سريع وضحكاته تملأ الفضاء.. تلفت الرجل حوله فوجد الظلام يكاد يطبق على المكان وشعر بنفسه وحيدًا.. ليس ثمة شى غير ضحكات مصطفى التى تحاصره من كل جهة.. وتساءل أين الخطأ وأين الصواب؟ تمنى لو عثر على مذكرات القتيل.. وهفت نفسه إليه..

.٣.

من مذكراته التى لم يقرأها أحد:

١ ـ قالوا عن متولى أنه كان لا يتكلم إلا قليلاً وكان حزينًا فى

صمته، لا يعمل إلا ليلاً ،دائمًا يتعثر فى أسلاك التحويلات أو ينزلق فوق المازوت.. والذين كانوا يرونه بالليل كانوا يقسمون أنه ضفدع ضخم.. وفى ليلته المشهورة وقف وسط الظلام غير منفصل عنه وصرخ «يارب. أنا متولى الذى جاب الأرض من النوبة إلى رشيد، ومن سيدى برانى حتى غزة.. فرشتها سككا جرت فوقها الحياة.. والقضبان تعرفنى والعوارض والزلط، أنا نظمت حركة جيوش السلطة والإنجليز فوق المزلقانات.. أنا الذى قتلت إيطاليا وسط الصحراء..

صرخت فيه. انجلش إز باك أوف يو، خدعته وطعنته كما طعنت الضبع الذى طارد زوجتى فى ممر «حنفيش» .

وقالوا أنه بعد ذلك صعد السيمافور وجلس فوق قمته وجعل يغنى أسبوعًا باصقًا على الناس من تحته مجندلاً كل من حاول الصعود إليه وقالوا أيضًا أن مسًا كهربائيًا أصاب السيمافور فعجز الناس عن الصعود.. وأن العصافير كانت تدور حوله وفوقه فى مظلة واسعة وتسقسق.. وأنه كان يمد يده يمسك بإحداها يوشوشها.. وأن سائقى القطارات كانوا يقفون بالليل ليسمعوا غناءه ويلوحون له.. وقالوا أنه عندما انقطع الغناء وجدوا عصفورًا على رأسه واقفًا وأن المس الكهربائى انقطع فاستطاعوا الصعود إليه وقالوا أنهم فى طريقهم به إلى المقابر كان ذاك العصفور يسبقهم ثم وقف فوق الشاهد على ساق واحدة حتى مات، وبعض الناس قالوا أن الحانوتى دفنه مع متولى، وآخرون قالوا أنه أكل العصفور وفيها مات..

«ليل العلمين ومطروح»

٢ ـ كان عبدالله كثير الكلام وأكثر عمال الدريسة هزرًا وضحكًا.. وعندما هَدَّهُ الزمن دفع عشرة جنيهات رشوة لمفتش المنطقة وظل جائعًا شهرًا وأسرته، وتحول إلى ذلك العمل المريح الذى يتشاجر حوله العمال وصار مراقبًا للسكك. كان عليه كل يوم أن يسير عشرة أميال يحمل معطفًا معلقًا فوق كتفه يحوى جاشوكًا ومفتاحًا لربط المسامير وبعض أصابع الطباشير وعليه طوال السير أن لا يرفع عينيه عن الأرض مفتشًا عن المسامير والعوارض المخلخلة والقضبان المصابة بأى عطب.. عندما يجد عطبًا يسيرًا يقوم باصلاحه بأدواته القليلة ويضع فوق الأعطاب الكبيرة علامة بالطباشير حتى يعرفها عمال الدريسة فيصلحوهاإلى وقالوا أن عبدالله صار بعد عام واحد يسير دائمًا مطاطئ الرأس حتى وهو يعود إلى منزله وأنه فى «سكن» المصلحة كان يسير أيضًا كذلك.. وبعد عام ثان صار له فى ظهره حدبة وقل كلامه وكف ضحكة.. وأنه بعد العام الثالث صارت زوجته تشكو للنساء من أفعاله إذ أنه عندما يحين وقت الطعام يترك الطعام ويحضر طباشيره ثم يأخذ فى وضع علامات فوق الفجوات الموجودة بين أخشاب الطبلية.. وقالوا أن زوجته كانت من الذكاء حتى أنها دهنت الطبلية دهان زيت.. لكنها عادت تصرخ وعادوا يتحسرون لأن الرجل قد حفظ أماكن الفجوات فلم ينقطع عن وضع العلامات، بل أنه صار ينبش

الدهان بأظافره لتظهر الفجوات ويضع العلامات. وقالوا أنها بعد ذلك تعودت أن تضع له الطباشير فى طبق صغير جوار الأكل وتبذل جهدًا خارقا فى منع أصغر أولادها من التهامه .

وقالوا أنه بعد العام الرابع صار يسير فى شوارع المدينة ليضع علاماته فوق خطوط بلاط الأرصفة والمطبات .. وأن الشارع المجاور لسكن المصلحة أصبح ممتلئًا بعلاماته حتى أن أولاد المدارس لم يستطيعوا رسم خرائطهم على الأرض وهم يذاكرون فى مواسم الامتحانات.. وقالوا أنه بعد أن صعد متولى السيمافور ألقى إليه عبدالله طباشيرة طالبًا منه أن يضع علامات فوق الهواء العالى وقال: «رجل كذاب صعد السيمافور ولم يترك علامة واحدة» - بعض الناس يشك فى التقاء الرجلين ويجعل المسافة الزمنية بينهما كبيرة خاصة وأن خطوط عبدالله وعلاماته ما تزال على الجدران رغم انطفاء لونها - أكدوا بعد ذلك على أن عبدالله تطور بسرعة فأخذ يقف الساعات فى مكان واحد ويضع الخط فوق الخط فوق الهواء.. وأنه كان فى النهاية يسقط منهارًا متشنجًا.. وأصبح شجار زوجته معه معتادًا كل ليلة حول النقود التى يبعثرها ثمنًا للطباشير.. وأنها طالما قالت له - هكذا يقولون - «لماذا لا تتسلم طباشير كافيًا من الشغل» وأنه طالما رد عليها قائلاً: «طباشير الشغل للشغل ولكنى أشترى لنفسى» وأنهم تعجبوا من هذا القول وأقسموا على أنه عاقل وهم المجانين! ولكنه عندما مات فى الطريق وجدوا جواره عشرة صناديق طباشير صغيرة فقالوا يرحمه الله لقد كان مجنونًا بحق.. قالوا بعد ذلك أن الأطفال

تخاطفوا هذه الصناديق ورسموا له بها صورًا فوق الأماكن السليمة على الجدران فكانت صوره محاصرة بخطوطه، وقال عنه شاب يهوى الرسم «رحمه الله كان محاصرًا حيًا وميتًا».

«على»

«ليل العلمين ومطروح»

٣ ـ قالوا عن التحويلة الرابعة انه سكنها الجن.. و.. تبًا لى.. ماذا سأكتب..؟ لقد كسر قلمى وهذه هى الإشارة التى أنتظرها.

حـوار صغير!

رفـعت رأسـهـا إلى واتسـعت عـيناها السـوداوان. بدا لى أنهـا ستتكلم، لكنها ظلت تحملق فى. فى مثل هـذه الحـالة عـادة يبتسم الواحد منا للطفل لكن ابتسامتى لم تجعلها تكف عن الحملقة فىّ . كدت، بحق أرتبك. تراجعت خطوة ورحت أنظر إلى مدخل العمـارة اللامع، رأيت لنفسى، ولهـا أيضًا، أكثـر من خـيـال على الحـوائط والأرض بسـبب مـصـادر إضـاءة خـفـيـة لكنى تركت النظر إلى الخيالات وعدت أنظر إليها. كانت قد انصرفت عنى وراحت تتابع الأرقـام المضـيئـة أعلى باب المصـعـد الذى كـان لا يزال آخـذًا فى الصعود.

ركـزت بصـرى على الفـيـونكتـين الصـغـيـرتين الحـريريتـين الخضـراوين على جانبى رأسهـا، وعلى الوردتين الخضـراوين فوق

كتفيها، وعلى فستانها الأبيض القصير الذى يكشف ذراعيها الشمعيتين اللذيذتين. عند الآباء والأمهات دائما رغبة أن يأكلوا الأبناء محبة. أعرف ذلك فلدى طفل كلما قبلته وددت لو التهمته!

ابتسمت ورأيت فى قدميها حذاء من الكاوتش الأبيض تحته جورب ذو حواف من الدانتيلا المزركشة. ثم رأيتها تعود تنظر إلى برغبة واضحة فى الكلام سألتنى.

- حضرتك تسكن هنا؟

- لا. جئت أزور أحد الأصدقاء.

- ممكن أعرف اسمه؟

قالت ذلك بجد مثير. ابتسمت قلت:

- جمعة. هل تعرفين سكان العمارة جميعًا؟

تجاهلت سؤالى وقالت:

- فى أى دور يسكن عمو جمعة؟

لحظة وجدت نفسى نسيت لكنى تداركت وقلت:

- بالدور العاشر.

وكان المصعد قد وصل إلينا ففتحت الباب ودخلتُ:

- ألن تدخلى ؟

عادت تنظر إلى تتأملنى هذه المرة ثم دخلت إلى المصعد الذى انغلق بابه، رأيتها تتابع اغلاق الباب.

- هل تعرف أسماء أولاد عمو جمعة؟

عادت تسألنى باهتمام.

- طبعًا حمادة وريهام. لكن لماذا كل هذه الأسئلة. أنت خائفة؟

- لا.

- ابتسمت وأعجبنى اتساع عينيها وألقهما فى غبشة المصعد ذى الضوء الشحيح قالت:

- أمس ركب واحد مع ميار بنت الجيران وهددها بالقتل وسرق منها الحلق والغويشة.

سكت للحظة ثم قلت:

- هل شكلى حرامى؟

- لأ طبعًا. لكن ميار قالت إن الحرامى كان لابس بدلة وشكله نظيف.

وجدت أنه من الأفضل أن أسكت، ألا أنظر أليها. وفكرت أنه لا معنى لهذه الزيارة لصديقى. هو شخص أصبح يعمل فى التجارة الآن، هو يقول ذلك، والحقيقة أنه يعمل فى السمسرة والمضاربة على الأراضى والعقارات، ولا وقت لديه لاستقبال صديق قديم مثلى لا يعمل فى السمسرة ولا المضاربة على الأراضى والعقارات وأحسست بحاجة حقيقية لأرى وجهها الجميل فحملقت فيها وقلت فجأة:

- لو قلت لك أعطينى الحلق والغويشة هل تخافين منى؟

لم أقصد ذلك قط. كنت أريد فقط أن أرى وجهها الجميل قبل أن تغادرنى. وجه الطفلة الخائفة. وجه الملاك، لم أفكر حتى أن أمزح معها لكن لا فائدة، لقد خرج الكلام من فمى على غير إرادتى ولا سبيل لاسترجاعه.

تراجعت إلى ركن المصعد واتسعت عيناها بالخوف هذه المرة وتوسلت بصوت مخنوق.

- والنبى يا عمو ما تقتلنيش. خد كل حاجة وسيبنى.

ولم أكن اتصور أن العيون يمكن أن تتسع كل هذا الاتساع. وكدت اقترب منها أشجعها لكنها انكمشت، وكانت قد خلعت الحلق من أذنيها والغويشة من معصمها وقدمتها لى بين كفيها. كانت تمد كفيها وتتراجع فيقاومها جدار المصعد فتنكمش وتبكى بلا صوت ولكن بدموع غزيرة.. كنا وصلنا الدور الثامن فأوقفت المصعد وفتحت الباب قاصدًا أن أخرج وأتركها وألا أزور صديقى هذا لكنها سبقتنى واندفعت خارجة تاركة الحلق والغويشة على أرض المصعد.. رأيتها تدق باب إحدى الشقق بعنف. فضغطت زر النزول فانغلق المصعد. كان عرق كثير فوق جسمى وضوضاء أسمعها من أعلى العمارة،أصوات تدعو للنجدة وأصوات تدعو للقبض علىَّ وأبواب تفتح ولما وصلت إلى الدور الأرضى لم أجد أحدًا أمامى فخرجت من المصعد مطلقًا ساقى للريح لكن بعد أن ابتعدت إلى مسافة كافيةللنجاة. جلست على أول مقهى فى الطريق أسأل

نفسى ما إذا كان قد توجب على عدم الهروب وشرح الأمر لسكان العمارة. وقبل أن أجيب على نفسى أحسست بشىء خشن فى يدى. رأيت يدى مغلقة فتحتها لأرى الحلق والغويشة داخلها. كيف حدث ذلك. وفى أى لحظة انحنيت إلى أرض المصعد لا أذكر بالضبط.



مـائـدة

أمسكت بورقة صغيرة من شجرة كافور ودعكتها فى يدها. شمّتها وانتعشت.. هل كان ما تراه الآن موجودا حين جاءت من هذا الطريق منذ ساعتين؟ إذا كان كذلك فكيف لم تره، هل يكون وقت طويل قد مضى بما يكفى للأرض أن تنفجر منها ترعة كهذه تتمو على جانبيها حشائش وأشجار كافور وخروع وصفصاف؟

لابد أن تسرع بالعودة قبل أن يحل الليل قبل موعد مدفع الإفطار كما قال لها أبوها. لا تستطيع أختها الصغرى التى معها، والتى لم تبلغ السابعة بعد أن تحميها، ولا تستطيع هى التى فى الثانية عشرة أن تحمى الصغرى التى توقفت وقالت :

- تعبت.

ورأت الكبرى الشمس تبتعد عن الدنيا، وطرف السماء البعيديلتهب بالنار، وأدركت أنه لا معنى لعودتهما قبل موعد مدفع الإفطار الآن إذ فشلت مهمتهما، رأت أنه لا بأس من قليل من الوقت للراحة.

جلستا تحت شجرة كثيفة الأوراق ورأت الكبرى بيوتا تنتصب أمامها بيوت موصدة الأبواب لا يصدر عنها صوت ولا يظهر فيها أحد وقالت الصغرى.

- أنا سمعت عمى يقرأ القرآن داخل البيت!

- وأنا أيضا لكن هل كنت استطيع أن أقول ذلك لزوجته لقد استقبلتنا مبتهجة وقالت أنه غير موجود، وأنه لا يوجد لديهم أى نقود يمكن أن يعطوها لنا.

وسكتتا لحظات ثم هتفت الصغرى.

- فى الترعة بط.

واقتربتا من الترعة زاحفتين فرأتا بطًا يلهو سابحا فاردًا أجنحته يرفرف بها ثم يغطس بمنقاره فى الماء ويخرج به وقد علقت به سكة صغيرة ولما سمعتا صوت رفيف أجنحة فوقهما رفعتا عيونهما لتريا سربا ضخما من الطيور يمضى لينام. أطرقتا قليلا ثم قالت الصغرى:

- لابد أنك جائعة.. أنا جائعة جدا..

ابتسمت الكبرى ولم ترد لكن الصغرى تابعت الكلام وهى تسوى مساحة صغيرة من الأرض الترابية بيديها قالت:

- أنظرى هذه طبلية.

قالت ذلك وهى تشير إلى دائرة واسعة رسمتها بإصبعها السبابة فوق التراب ثم مدت يديها فى الفضاء وعادت بها تمسكان شيئا وهميا صغيرا وضعته فوق الأرض وقالت :

- وهذا طبق ملوخية.

وكررت نفس الحركة.

- وهذا طبق أرز باللحم هيّا كلى معى.

حملقت الكبرى فى عينى أختها الصغيرة. عينان خضراوان رائعتان وعادت الصغرى تقول :

- كلى باسم الله، هذا أكل جميل جدا، أجمل من أى أكل .

وكانت بدورها تحملق فى عينى أختها الكبيرة التى أوشكت أن تبكى، لكنها الكبرى، انطلقت فجأة فى الضحك البهيج، فانطلقت الصغرى معها فى ضحك أكثر بهجة وسرت ضحكاتهما فى الفضاء الساكن الواسع فامتلأ بها حتى أنه حين أنطلق مدفع الافطار لم تسمعا صوت أنطلاقه..

جرائد اليوم التالى

فى الطريق إلى المنزل اشترى جرائد اليوم التالى. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.

فى كل ليلة، وهو يشترى الصحف، يشعر بتميز أهل القاهرة عن سائر المدن والقرى. هم يقرأون اليوم جرائد الغد، ورغم انه يعرف أن كل الأخبار اتى يقرأها فى الجرائد سبق للإذاعات الأجنبية أن أذاعتها، إلا أنه لم يكن يحب أن يجرد أهل القاهرة من هذا التميز.

فى كل الصحف كان يدمن قراءة الحوادث، ورغم وجود جريدة مخصصة لذلك إلا أنه كان لا يحبها. قرأ فيها يوما قصة الفتاة التى القت بنفسها تحت عجلات القطار. ورأى صورتها على الغلاف. كانت هى حبيبته الأولى التى تنبأت لنفسها بمصير أنا

كارنينا وتركته فتزوجت رجلا فى عمر والدها، قالت له آنها تعرف مصيرها وتحب أن تذهب اليه!

فى المنزل، فى أبعد حجرة فى الشقة، استلقى أمام التليفزيون .... أختار هذا المكان حتى لا يسمع أحد من الجيران صوته، راح يتابع آخر الأنباء، ولم يكن يدرى أنه يتصفح الجرائد ايضا.

امتلأت الشاشة بقتلى البوسنة والهرسك، وجثث أهل رواندا فى نهر كاچيرا والولد الذى أغتال أمه تحت تأثير العقاقير، واللص الذى سرق ركابى أتوبيس كامل تحت تهديد السيف، والمرأة التى حبست الخادمة مع الكلب فأكلها الكلب، والممرضة التى القت بأطفالها الأربع فى النيل ثم ألقت بنفسها خلفهم وتركت رسالة تقول «لم أعد قادرة على إعالتهم ولا قادرة على تركهم خلفى فى الحياة بدون عائل ولما لم يجد شيئًا مما يراه أمامه على الشاشة التى كانت تذيع أخبار الرياضة العالمية أدرك أن الأمور تداخلت وأن مخه تبعثر فى الفضاء، فنهض وحول التليفزيون إلى قناة أخرى فرأى لصا يحاول فتح أحد الأبواب المغلقة فاتجه إلى باب شقته بحذر أخذًا سكينا من المطبخ وقرر أن يطعن اللص الذى لم يجده فعاد ضاحكا من نفسه ليرى على الشاشة الجندى الشمالى يحصد فى الهنود الحمر لكن الهندى الأحمر الغاضب التف من بعيد ثم انقض على الجندى ببلطة شجت رأسه فتلفت هو حوله وتأكد من وجوده وحده فى الشقة، وتوجه إلى المرآة ليضع إصبعيه فى أذنيه ويخرج لسانه يحركه فى كل اتجاه امامه. لن يوافق أبدا على فكرة أن يخرج على الناس حاملا مسدسه يقتل به كل من يقابله فى الطريق.

الفهرس

ليلة أنچيلا ٧
حكاية تيّرى ٢١
طائر البحر الوحيد ٢٩
إحساس قديم يستيقظ ٣٧
ثلاث قصص حب وقصة رابعة ٤٥
هل قتلت الهدهد ٥٣
الكلمات المتقاطعة ٥٩
مشاهد صغيرة حول سور كبير ..! ٦٧
شمس الظهيرة ٧٥
عن الرجل الذى كان يهوى قهر العربات ٨٩
حوار صغير ١٠٧
مـائـدة ١١٣
جرائد اليوم التالى ١١٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٤٤٤ / ٢٠٠٣

I. S. B. N 977 - 01 - 8792 - 5